

الكتاب الجامعي 11

الدكتورة مريم البغدادي



الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

بسم الله الرحمن الرحيم



الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

شعراء التروبادور



تمهيد

إن الحضارة الإنسانية أدركت مراحل عديدة من التطور كما مرت بمراحل أخرى من الجمود وحلّقت في آفاق ثقافية نخر جنباتها تعصّب ديني أو عِرْقي أو جهل كان ولا يزال في عراكٍ مستمر مع البصيرة العلمية والوعي الفكري على مدى أزمان التاريخ البشري دون انقطاع. ولكنها رغم النكسات المختلفة المصادر والنتائج تحاول أن تقف صامدة أمام كل عائقٍ يطمس ضوءها أو يشوّه شخصيتها أو يحدّ من أصالتها وتطورها الذي يمدّه الفكر الإنساني بروافد متواصلة العطاء والإبداع والتدفّق، لترفل في ثياب نهضة مثمرة تنمو وتسمو ثم يخبو ضوؤها ثم يُنير من جديد أركان الحياة ويمدها بكل جديد لا يتخلّى عن أصول قديمة تضرب جذورها في أعماق التاريخ البشري.

ولما أن كان العقل والفكر هما عَيْن الحضارة المبصرة ولما أن كانت الطبيعة البشرية — باعتمادها على الفكر — توّاقة إلى الفضول لمعرفة ما يدور حولها وتفسير الظواهر على اختلاف طبيعتها أو مصدرها، كان من الطبيعي أن يبحث الإنسان عما يوضّح له هذه الأشياء أو يساعده على فهمها، فيلجأ إلى التنقّل من شيء إلى آخر ومن مكان إلى سواه علّه في مواصلة سيره ومقارنته بين الأشياء يستطيع أن يرضي فضوله، وهنا تبدأ حركة نموّ معارفه و يزداد شغفه لمعرفة المزيد منها، للإستفادة منها في الحياة والعيش.

ومن هنا أيضاً يبدأ احتكاكه بغيره من الكائنات والأشياء المادية والمعنوية، و يوماً بعد يوم يتحوّل من تطور في المعرفة إلى تطور آخر، فتتراكم أمامه معارف تكوّن مع معارف غيره من البشر ثقافة مادّية ومعنوية تقودان إلى حضارة تشمل البيئة الواحدة لتسير في ركاب الزمن إلى بيئة أخرى وأخرى حتى تكتمل الشخصية الحضارية بالتأثير والتأثر عبر القرون والبلدان في هذه الحياة الإنسانية. وهكذا تتفتح آفاق الإنسان و يسعى إلى التقدم دون انقطاع فيأخذ و يعطي حتى يكوّن له حضارة خاصة به تعتمد في قيامها على بذور حضارية متعددة فيبسق ثمرها ليتناوله من يشاء أو مَنْ يُرغم على تناولِهِ بفضل قوة هذه الحضارة أو تلك وحاجة الإنسان على اختلاف جنسه إلى الاقتباس منها أو مجاراتها في إطار فائدته منها وعلى قدر طاقته واستعداده.

ومولد الحضارة — كما يقول توينبي — لا يُعزى إلى تفوّق جنس بشري معين، أو إلى ظروف ملائمة

بشكل غير عادي، بل يعزى إلى ظروف قاسية بشكل غير عادي، وتشكّل هذه الظروف تحدّيا لمجتمع ما، فيحاول هذا المجتمع أن يواجه هذا التحدّي، فإذا ما واجهه بنجاح، وتغلّب عليه، فقد يؤدي هذا الحافز إلى زيادة تحسين قوته الداخلية، وقدرته الخلاّقة إلى درجة كبيرة بحيث يؤدي ذلك إلى مولد ما نسمّيه عادة «حضارة». (١)

ويبدو من هنا أن الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر أمر طبيعي يفسّر لنا انتقال حضارة أمةٍ ما إلى أخرى رغمَ مّا يحاوله بعض العلماء من إنكار هذا التأثير أو التأثر تعصّبا أو وطنيّة يضلاّن أو يحسبان أنهما يضلاّن الآخرين عن الحقيقة التي تشهد بها نهضة بلدٍما. كما كان الأمر بالنسبة للحضارة العربية وتأثيرها في نهضة أوروبا في عصر من عصور التاريخ والتي يشهد بها كل ركن من أركان الحياة فيها، سواء أكان من الناحية الأدبية أو الثقافية أو العمرانية أو غيرها.

ولقد أفاض كثير من العلماء في هذا الموضوع، موضوع تأثير الحضارة العربية بجميع أشكالها في الحضارة الأوروبية. ولقد كان طريق هذا التأثير مفتوحاً عبر منفذين أساسين: وهما الفتوحات العربية، والصّلات التجارية، علاوة على العلاقات بين العرب وغيرهم من الأمم على مدى السنين ومنذ العصور الأولى للتاريخ البشري.

ولعل استراتيجية بلاد العرب سبب من أهم الأسباب التي دعت إلى تطوير هذه العلاقات بين العرب وغيرهم من الأمم في العالم القديم، إذ تعتبر القلب للعالم القديم والمفتاح لقارة آسيا ونقطة الإتصال إلى الوصول إلى الهند والسواحل الافريقية على حد قول جواد علي في تاريخه. ولو أخذنا بعين الاعتبار الاصطلاحات التي كانت تطلقها الأمم الأخرى على بلاد العرب لتبيّن لنا هذا الإحتكاك واضحاً، ومن هذه الاصطلاحات أو الأسماء، تلك الأسماء التي أطلقها اليونان القدماء على أجزاء الجزيرة العربية إذ قسّموها إلى ثلاثة أقسام وهي: الصحراء **Arabia Deserte** والعربية الحجرية **Arabia Petra**، والعربية السعيدة **Arabia felix**، على حين أطلق اليونان الذين كانوا في مصر حوالي ٣٣٠ق.م عليها جميعاً لفظ «العربية»(٢) كما أطلقوا على سكان شمال الحجاز اسم ساراسيني أو سارازان. ولاشك أن هذا التقسيم الجغرافي تابع للتقسيم السياسي إذ كانت العربية الحجرية تابعة لروما والصحراوية تحت إدارة بارثيا وهكذا.

وأما الفرس فقد أضافوا إلى هذه الأجزاء العربية أجزاء أخرى ومنها عربايا التي أطلقوها على الجزء الخلفي من غزة (٥٥٠-٣٣٣ق.م) ويضمّ هذا الجزء الصحاري والواحات في الشمال الغربي من

(١) حضارة العرب. جوستان لوبون، ترجمة عادل زعيتر.

(٢) انظر: كتاب جواد بولس بالفرنسية **Les peuples**، الجزء الرابع.

حدود مصر والبحر الأحمر إلى الجنوب حتى الفرات والخليج الفارسي في الشمال. (١)

والحقيقة أن ممارسة العرب للتجارة بشكل واسع وسيطرتهم على الطرق التجارية البرية والبحرية دفعت المؤرخ سترابو **Strabon** إلى القول بأن «كل العرب تجار»: وهذه التجارة هي التي خلقت الإحتكاك بين العرب وغيرهم، وتشهد الحفريات يومياً بهذه العلاقات وتكشف التأثير والتأثر المتبادل بين أمم العالم القديم، فقد اكتشفت —على سبيل المثال لا الحصر— نقود تحمل صورة تمثال البوم الأثيني مقلّدة النقود اليونانية في اليمن نفسها، واليمن كما نعلم على علاقة بعرب الجزيرة كلها بواسطة التجارة عن طريقين أساسيين: وهما: الطريق الذي كان يبدأ من صنعاء و يستمر إلى الشمال قاطعاً الحجاز ومكة التي كانت تعتبر أهم المحطات التجارية، ثم إلى ديدان على حدود مملكة الأنباط، وتظل في طريقها إلى أن تصل إلى غزة المطلّة على البحر المتوسط ثم الطريق البحري المتجه إلى ميناء أيلة «العقبة». (٢).

ولقد ظلت الطرق التجارية حكراً على العرب خاصة عرب الجنوب إلى أن امتدت أطماع الرومان إليها، فسار جايوس جالوس (٢٥ق.م) في حملة لإخضاع عرب اليمن لسيطرة الرومان، ورغم فشله في هذا، نشطت السفن الرومانية في مزاحمة سفن العرب في الطريق التجاري البحري، فمكّن ذلك لعرب الحجاز من السيطرة على الطريق البري المؤدي إلى الشام ثم اليمن.

هذا ولا ننسى العلاقات السياسية التي كانت بين بعض أجزاء بلاد العرب والرومان والفرس، إذ كان بعضها تحت سيطرة رومانية أو فارسية منذ فجر التاريخ وقبل ميلاد المسيح وبعده حتى ظهور الإسلام. (٣)

ولقد تم الإتصال بعد الإسلام بين العرب وأوروبا حفيدة اليونان والرومان وغيرهم من أمم العالم القديم عن طريقين أيضاً: طريق الفتوحات، وطريق التجارة. وقصة فتح العرب لإسبانيا معروفة، بدأت منذ عهد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الذي تابع معه فتح بلاد الافرنج. وما أن حلّ عهد عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ، ٧٥٥-٧٨٨م) حتى أصبحت الأندلس —خاصة أثناء حكمه— تتمتع بالقوة والتنظيم السياسي والإجتماعي اللذين طُبعا بالطابع العربي الأموي في كل أنماط الحياة على اختلافها من سياسية واجتماعية وعادات وتقاليد وغيرها من الأنماط التي اصطبغت بالتأنّق الزائد،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: كتاب **Arabia deserta: Doughty** ثم إدارة المعارف البريطانية، أسواق العرب للأفغاني، والأمويون والبيزنطيون للدكتور إبراهيم العدوي.

(٣) انظر على سبيل المثال: جواد بولس في **Les peuples**، تاريخ جواد علي، وكتاب هورت **Histoirs des Arabes**، دائرة المعارف البريطانية، وكتاب **Les Arabes en Syria** لمؤلفه **Dussaud**.

والذي نشر ظلّه على فرنسا وألمانيا وإيطاليا وما جاورها فيما بعد. ولقد تألقت هذه الأنماط الباذخة بتألّق حكم عبد الرحمن الثالث الذي دام خمسين عاماً (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢م-٩٦١م) فتزلّف له ملوك «الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم»(١) خشية منه وانبهاراً بنهضة بلاد الأندلس في زمنه. وقد أمدّت هذه النهضة الحضارة الإنسانية بشكل عام والأوروبية، بشكل خاص، بروح أحيت ما كان ميّتاً من الفكر الأوروبي خاصة في العصور الوسطى، أو عصور الظلام التي أضاءتها الحضارة العربية عن طريق الأندلس العربية المسلمة منذ أن بدأ الإتصال بين العرب وأوروبا وعلى امتداد ثمانية قرون وهي مدة وجود العرب على الأراضي الأوروبية ابتداء من الفتح العربي عن طريق طارق بن زياد إلى أن سقطت غرناطة سنة١٤٩٢م على يد فرديناند وإيزابيلا حينما هاجما بني الأحمر، الذين صمدوا في وجه التوسع الإفرنجي مدة قرنين ونصف إلى أن اشتدت المحنة وسقطت آخر معاقل العرب.

ومن الجدير بالذكر أن الوجود العربي في الأندلس على وجه الخصوص لم ينته إلا باشتداد الإضطهاد الديني ضد المسلمين والعرب وجلاء هؤلاء الجلاء الأخير سنة١٦٠٩م، وحرقت كتبهم بعد أن أمدت العالم الغربي بالفكر والعبقرية أصليْ الحضارة الغربية وصاحبيْ الفضل في نهضة أوروبا الحديثة كما يقول جوستاف لوبون نقلاً عن مسيوليبْري: «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخّرتْ نهضة أوروبا في الآداب عدة قرون».

ونظرة إلى بعض ما جاء في بعض الفقرات من كتاب جوستاف لوبون «حضارة العرب» في هذا الصدد نتبين مدى التأثير العربي في معظم جوانب الحياة الحضارية في أوروبا وخاصة في العصور الوسطى. يقول جوستاف لوبون: «إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانية ساطعة جداً، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها سنيورات(٢) متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشِطوا كُتُب الأقدمين النفيسة بخشوع، وذلك كما يكون عندهم من الرُّقوق ما هو ضروريّ لنَسْخ كتب العبادة. ودامت همجيّة أوروبة البالغةُ زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبْدُ في أوروبة بعضُ الميل إلى العلم إلاّ في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد، وذلك حين ظهرَ فيها أناسٌ رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولّوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمةً وحدهم. ولم تكن الحروب الصليبية سبباً في إدخال العلوم إلى أوروبة كما يُرَدَّدُ على العموم، وإنما دخلت العلومُ أوروبة من إسبانية وصقليّة وإيطالية، وذلك أن مكتباً للمترجمين في طُليْطِلة بدأ منذ سنة ١١٣٠م ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس

(١) انظر: في الأدب الأندلسي، جودت الركابي

(٢) أمراء أو سادة القوم في أوروبا.

الأساقفة ريمون، وأن أعماله في الترجمة كُلِّلت بالنجاح ما بدا للعرب بها عالمٌ جديد، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب...

«والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كُتُبَ العالم اليوناني القديم إلاّ من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد (ص)... وأنه إذا كانت هناك أمةٌ نُقِرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم، فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبانُ القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً». «وعرب الأندلس هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد... العلوم والآداب... وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة ونذكر منهم... جربرت الذي صار بابا في سنة ٩٩٩م باسم سلفستر الثاني، والذي أراد أن ينشر في أوروبة ما تعلّمه فَعَدَّ الناسُ عمله من الخوارق واتّهموه بأنه باع روحه من الشيطان».

وليس القرن العاشر للميلاد هو بداية هذا الإحتكاك ومن ثم التأثير والتأثر، وإنما سبق ذلك بمدة طويلة وإن كان محدوداً في بداية الفتح، إلاّ أنه مع الأيام استشرى التأثير العربي حتى اشتكى بعض الأوروبيين منه حيث بدأت اللغة العربية تأخذ بألباب هؤلاء مما دفع بعض رجال الدين إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية سنة ٧١٩م حتى يفهمه مَنْ فقد لسانه اللاتيني منهم. ويؤكد لنا أحمد حسن الزيات ذلك في كتابه تاريخ الأدب العربي حيث يقول في معرض حديثه عن الإسبان في الأندلس: «قال هذا الكاهن — كاهن قرطبة — ما ملخصه: إننا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية فنتعلم لغة عذبة الألفاظ بليغة الأداء جميلة الإنشاء، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية وشبابنا الأذكياء جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم، ...وهكذا نسي المسيحيون لغتهم...». ولقد اختلط هؤلاء الإسبان والعرب الذين جاءوا إلى الأندلس والصقالبة وغيرهم من شعوب الفرنجة المجاورة اختلاطاً وسّع دائرة التأثير العربي في الحضارة الأوروبية. ولقد سرى النفوذ العربي إلى جامعات فرنسا وإيطاليا وغيرها من الجامعات الأوروبية وظلّ حتى وقت قريب. (١)

ولعلّ ما قاله هنري كوبار في كتابه «الحرب الثقافية» يؤكد تأثير وتأثر الشعوب بلغات وثقافات بعضها البعض حتى وقتنا الحاضر، فهو يقول بأن فرنسا هي واحدة من بين البلدان التي يجب أن تحارب الزحف الثقافي الأمريكي والانجليزي حتى لا تضيع شخصيتها وهويّتها المتجسمة في لغتها التي تعتبر

(١) انظر: حضارة العرب لجوستاف لوبون، الأدب الأندلسي لجودت الركابي، ودور العرب في تكوين الفكر الأوروبي للدكتور عبد الرحمن بدوي، والأبحاث الأندلسية أيضاً.

أولى اللغات العالمية الحية. وقوله هذا مبنيّ على انتشار اللغة الانجليزية بين الفرنسيين حالياً حتى ظهر تيّارٌ من المثقفين منهم يدافع عن اللغة الانجليزية وانتشارها بسهولة استعمالها وتعلّمها. فإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أن صرخة بعض الأوروبيين قديماً من اكتساح الثقافة العربية للثقافات الأخرى لا مبالغة فيها، وإنما كانت نتيجة النفوذ الحضاري العربي عامة والأدبي خاصة في أركان الحياة الأوروبية منذ بداية الفتح وعلى مدى ثمانية قرون إن لم يكن أكثر كما رأينا سابقاً.

والتأثير الأدبي للعرب يظهر في الأنواع الأدبية المختلفة، عند الأوروبيين، من شعر وقصة وأسطورة، كما أن التأثير الإسلامي يضرب في جنبات آثارهم الأدبية حتى الشهيرة منها والتي تُعَدُّ أرقى نماذج الأدب الأوروبي أو العالمي على وجه الدقة.

ففي رحلة سلفستر الثاني إلى قرطبة طلباً للعلم والحكمة تبدأ رحلة التبادل الثقافي بين العرب وأوروبا بشكل ظاهر، وذلك في سنة ٩٦٧م، وقد أشرنا إلى ذلك البابا الذي عدّ الناس محاولته لنشر العلم في أوروبا من الشيطان، ثم توالت اهتمامات الغرب بالثقافة العربية فازدهرت عن طريق طليطلة التي امتازت بوجود مكتبات ضخمة ضمت الآلاف من الكتب المشرقية وغيرها، إلى جانب وجود مجموعة كبيرة من المترجمين الذين ساهموا في نقل التراث اللاتيني والفكر الإغريقي علاوة على العلوم والآداب العربية وكنوز الفكر العربي، جرياً على عادة العرب في الترجمة منذ عهد الخليفة المأمون الذي أنشأ «بيت الحكمة» في سنة ٢١٥هـ لترجمة الكتب السريانية واليونانية والفارسية إلى العربية. وقد ذكر كثير من الكتّاب الغربيين فضل العرب على الغرب بنقل التراث اليوناني وغيره إلى أوروبا عن طريق هذا التبادل الثقافي الذي كان يتمثل بعطاء العرب وأخذ الأوروبيين له. كما ساهمت جامعات باريس وأكسفورد وغيرهما بهذا إذ كانت ترسل مترجميها لنقل ما يستطيعون نقله أو نسخه ويشهد بذلك آثار ابن حزم الأندلسي وابن رشد وابن سينا وبعض المخطوطات لكتّاب عرب يرجع تاريخها إلى القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين والتي أكّد وجودها ثورندايك **Thorendike** في المتحف البريطاني، ولقد كانت أوروبا قبل ذلك تعتمد على دراسات ضئيلة للفكر اليوناني إلى أن التفت بعض المفكرين في أوروبا للاستفادة من قلعة العرب العلمية في الأندلس بعد أن نقلت من المشرق من المعارف الكثير، وهاهو رجل الدين جونسالڤو (ت ١١٨٠) الذي يعد من أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط كما شاركه في هذا الفضل يوحنا الإسباني وغيره.

ومن المعروف أن العرب قد فتحوا صقلية في أوائل القرن الثامن الميلادي ولم تعد إلى النورمانديين إلا في القرن الحادي عشر ورغم عودتها إليهم ظلّ الطابع العربي قوياً فيها، عشرات السنين، إذ كان بمقدور المرء أن يرى الموسيقى العربية والراقصين في الاحتفالات العامة، كما كان فردريك الثاني وابنه من بعده متحمسين للعلوم العربية والإسلامية التي انتشرت في زمنها في أنحاء المدن الإيطالية، وقد شجّعا

ذلك بتوسيع نطاق الترجمة، وكان الأمر نفسه بالنسبة لجيوم الأول ابن روجار الثاني الذي كان متأثراً بمظاهر الخلافة الفاطمية في مصر، فكان يرتدي عباءة بحروف عربية كوفية، وليس هذا غريباً، فقد وجد بعض الباحثين في السجلات البابوية التي تعود إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ما يشير إلى أن الأقمشة والملابس الكهنوتية كانت تأتي عن طريق العرب إليهم.

وهكذا كانت طليطلة وصقلّية وغيرهما من منارات العلم العربية تزوّد الفكر الأوروبي بالفكر الإسلامي والعربي بالإضافة إلى الفكر اليوناني، كما كانت محط أنظار علماء أوروبا الذين كانوا يأتون إليها للمشاركة في حركة الترجمة ومن هؤلاء من ترجم الفلك والجبر والطب والعلوم الفلسفية والأدبية على اختلافها. ففي عهد ألفونسو الحكيم ترجمت كليلة ودمنة إلى جانب غيرها من الكتب، ويظهر أثر «كليلة ودمنة» في الفن الأدبي الذي كان يطلق عليه اسم «الفابليو» **Fabliaux** (١) وهو عبارة عن قصة شعرية محكية شعبية انتشرت في الأوساط الفرنسية في العصور الوسطى، وكانت تعتمد على إبراز العيوب لدى الطبقة الوسطى في المجتمع، بطريقة ساخرة تثير الضحك وتشيع المرح والفكاهة بين الناس. وكانت تتعرض لكل الموضوعات التي كانت تهمّ هذه الطبقة الإجتماعية، فإن تعلّق الأمر بالنساء فإنها تظهرهن فيها ماكرات يتلاعبن بمشاعر وعقول الرجال، وتبدو منزلة النساء من خلالها أقلّ مرتبة من مكانتها في أدب الفروسية الذي سنتعرض للحديث عنه والذي كان والفابليو في نفس العصر كما سنرى.

ويشير جاستون باري **gaston Paris** إلى تأثير العرب والشرق عامة في هذا الفن الأدبي إذ يؤكد أن هذا النوع الشعبي من الأدب له جذور شرقية وعربية تنتمي إلى «كليلة ودمنة»، ويسوق بعض النماذج في الأدب الفرنسي ويقارنها بما يماثلها من قصص كليلة ودمنة، أو الأقاصيص العربية الأخرى أو التي لها جذور شرقية كما سبق أن ذكرنا.

ومن الفرنسيين الذين تأثروا بكليلة ودمنة الأديب لافونتين (١٦٣٦/١٦٩٣م) عن طريق ترجمة قام بها جيلبير جولمان بمساعدة فارسي يدعى داوود سهيد الأصبهاني، وقد اعترف لافونتين بذلك في حكاياته.

ومن الكتب التي ترجمت وأثّرت في الآداب الأوروبية قصص «ألف ليلة وليلة». (٢) وحكايات بوكاشيو (١٣٤٩م) التي سمّاها «الصبّاحات العشرة» أو: «ديكاميرون»، وهي تشير إلى تأثره بألف

---

(١) المعنى الأصلي للكلمة: «الخرافة الصغيرة»، وهي حكاية نظمية انتقل معناها من الخرافة إلى الاصطلاح «قصة شعرية محكيّة».
انظر: الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال.

(٢) انظر: المرجع السابق. ص ١٨٨ وما بعدها.

ليلة وليلة العربية وهي تصف عادات الإيطاليين وأخلاقياتهم في القرن الرابع عشر من خلال قصص متعددة تبلغ المئة، وقد تخيل بوكاشيو فيها عشرة من النبلاء رجالاً ونساءً قد فرّوا من الطاعون الذي اجتاح فلورنسا في ذلك الوقت فراحوا يقصّون الحكايات المتتالية طوال عشرة أيام استعرض الكاتب خلالها ما كان في المجتمع الإيطالي من أدواء وعادات وأخلاق. وقد انتشرت حكاياته هذه في أرجاء أوروبا فتأثر بها شكسبير في بعض مسرحياته ومنها مسرحية «العبرة بالخواتيم»(١) كما تأثر بها تشوسر الشاعر الإنجليزي المعروف الذي تبوّأ مكانة مرموقة في الشعر وتألّق في سماء تطوير النهضة الأدبية في انجلترا رغم استفحال نفوذ النورمانديين فيها آنذاك. وقد نسج لسنغ الألماني مسرحيته «ناتان الحكيم» متأثراً كما تأثر تشوسر بالليالي العربية سابقة الذكر.

وكانت مقامات الحريري —التي عرفت في إسبانيا وألّف بعض الأدباء الإسبان على غرارها في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين— من بين الآثار العربية التي بسطت نفوذها وتأثيرها على فن القصة في الآداب الأوروبية وخاصة في قصص «الشطار» التي انتشرت في إسبانيا ثم انتقلت منها إلى أدباء فرنسا ومنهم شارل سورل **Charles Sorel**. وهي ذات طابع واقعي ساعد على القضاء على قصص «الرعاة» ذات الطابع الواقعي الممزوج بالسحر في كثير من الأحيان.

ومن التراث الإسلامي والعربي الذي كان له أثر في الفكر الأوروبي «قصة الإسراء والمعراج» التي نسج على منوالها الشاعر الإيطالي المشهور دانته **Dante** ملحمته الشهيرة «الكوميديا الالهية» و يؤكد هذا الإتصال الذي كان بين دانته و بين المصادر الإسلامية المتعلقة بالإسراء والمعراج مخطوطتان مترجمتان لقصة المعراج إحداهما لاتينية عثر عليها في باريس، والأخرى فرنسية عثر عليها في أكسفورد، والترجمتان قد عملتا في القرن الثالث عشر كما أشار إلى ذلك الإسباني خوسيه مونوز سندينو، وكان ذلك بأمر من الملك الإسباني ألفونسو العاشر. وقد أثبت العالم سابق الذكر أن هذه الترجمات قد عرفت في أوروبا في فترة ميلاد الشاعر «دانته»، ووصلت إلى يد دانته الذي بنى عليها عمله الأدبي العظيم «الكوميديا». ومن الثابت أن دانته قد أقام في صقلّية في عهد الملك فردريك الثاني الذي أشرنا إليه سابقاً، والذي كان كثير الإهتمام بدراسة الثقافة الإسلامية والعربية.

علاوة على هذه الآثار العربية في الفكر الأوروبي، عرفت قصة «حي بن يقظان» لابن الطفيل في أوروبا عن طريق إسبانيا أيضاً كما لقيت اهتماماً كبيراً لدى الأوروبيين.

كل هذا ليس يهمنا فيه سوى الإشارة إلى تغلغل الثقافة والحضارة العربية في الفكر الأوروبي، وكيف كانت الأساس للحضارة الغربية الحديثة بعد أن انتشلت أوروبا من ظلمات العصور الوسطى

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية للعقاد.

وأخذت بيدها إلى نور العلم والمعرفة الإنسانية التي كان طابعها العربي هو الغالب في جميع جوانبها، ولو أردنا الإفاضة في هذا لما انتهينا لسعة الموضوع وتشعّبه ولكثرة الآثار العلمية والأدبية العربية منها والإسلامية التي شهد بها كبار علماء أوروبا قديماً وحديثاً رغم شعوبية بعضهم الآخر.

أما الذي يهمنا في هذا المقام فهو الإشارة إلى تأثير الشعر العربي الغَزِل في شعراء أوروبا. وليس هناك أمّة قد حفلت بالشعر مثل احتفاء العرب به حتى قيل إن ما كتبه العالم كلّه من شعر على اختلاف أممه لا يوازي ما قاله العرب من شعر. ولقد أغرم الأوروبيون بهذا الشعر كثيراً حين بدأوا يتعرّفون عليه من خلال احتكاكهم بأصحابه. فقد سبق أن أشرنا إلى أن العرب أنشأوا في الأندلس حضارة ضمت قرطبة وطليطلة واشبيلية وغرناطة وتخطّت جبال البرانس إلى جنوب فرنسا وتوغّلت في بروڤانس المقاطعة التي لم تكن خاضعة لفرنسا آنذاك، كما استولوا على صقلية وجنوب ايطالية ولم يقض على ملكهم إلا النورمان في القرن الحادي عشر رغم أنهم استمروا بالقيام برسالتهم الثقافية مدة طويلة من الزمن هناك. كما استولى العرب على نصف فرنسا الحاضرة واستقروا بجنوبها زمناً طويلاً، كما سلّم لهم حاكم مرسيليا مقاطعة بروڤانس سنة٧٣٧م، موطن الشعراء التروبادور موضوع هذا الكتاب.

ولقد كانت الصّلة بين الأدب العربي والإسلامي وبين الآداب الأوروبية متّصلة الوشائج على مدى قرون، فقد كان من عادة أمراء العرب وأمراء أوروبا، وعلى وجه الخصوص أمراء بروڤانس أن يتبادلوا الزيارات ويصحب كل واحد منهم شعراءه إذ لم يكن النشاط الفكري والروحي —على حد قول المستشرق الإيطالي فرانشيسكو جابر ييلي— «يعرف في تلك الآونة الخصبة التي امتدت حتى القرن الثالث عشر أيّة حدود سياسية أو دينية، بل ظل فخراً للحضارة العربية، وما نما من قبساتها في التربة الأوروبية».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد كانت طرق الإتصال بين الأمّتين عن طريق الحروب الصليبية التي أشعلها في القرن الحادي عشر الميلادي جنديّ مجذوب —على حد قول جوستاف لوبون— كان قد ترهّب وملكت نفسه أوهامٌ جعلته يتوجه إلى روما طالباً دعوة النصارى إلى إنقاذ الأماكن المقدّسة. واستطاع أن يدفع الجموع المسيحية وعلى رأسهم سادة وفرسان فرنسا وإيطاليا الطامعون في الثروة. ولن نخوض هنا في الكلام عن وحشية هؤلاء الصليبيين التي فاقت كل وصف، من خلال ثماني حملات همجية منافية لأية صفة بشرية أو لمحة إنسانية، وإنما أردنا من خلالها أن نصل إلى طريق تأثّر هؤلاء القوم بالثقافة والحضارة العربية التي أدّت إلى نمو الحضارة في أوروبا التي كانت تصطبغ بالهمجية البربرية. إلا أن هذا التأثر كان ضئيلاً إذا ما قيس بالتأثر المباشر الذي نتج عن طريق اختلاط الأوروبيين بعرب الأندلس الذين أصبحوا سادة البحر المتوسط وملوكاً لصقلية وسادة لكثير من المدن الفرنسية ومقاطعاتها.

و يتجلى هذا التأثّر في ظهور فنّ أدبي جديد بين شعراء بروڤانس الذين نشروه في الأقطار الأخرى بعد ذلك، وهذا الفن يختلف اختلافاً تاماً عن الشعر الذي تعوّدوا عليه قبل ذلك الوقت، فقد اقتبسوا فنّ القافية من العرب كما اقتبسوا معاني وأفكاراً ومبادىء كانت غريبة على بيئتهم، ولقد حمل الشعراء التروبادور لواء هذا الفن الجديد.

وكلمة تروبادور مأخوذة من كلمة **Trobar** في الفرنسية القديمة وتحمل كلها معنى «من ينظم الشعر المبتكر»، و يرى بعض المستشرقين أن «تروبادور» مشتقة من الكلمة العربية «طرب» مع بعض التحريف وأضيف إليها المقطع اللاتيني **ador** أو **adour** الّدال على اسم الفاعل. وربما يكون هذا التفسير معقولاً حيث نقل الأوروبيون كثيراً من الآلات الموسيقية بألفاظها العربية مع تغيير طفيف في المخارج كما هو الأمر بالنسبة لكلمة: العود **Lute** وكلمة قيثارة: **guitar** وكلمة رباب **rebec** وغيرها من الكلمات أو الإصطلاحات الموسيقية التي نقلوها مع ما نقلوا من شعر.

ومن المعروف أن بعض الأوروبيين حينذاك تعلّموا الموسيقى على يد أساتذة عرب من الأندلس نظرياً وعملياً. (١) وقد أشار كثير من الباحثين إلى الكلمات العربية التي تربوعن أربعة آلاف كلمة والموجودة في القواميس الإسبانية والتي انتقلت إلى اللغات الأوروبية بعد ذلك.

والشعراء التروبادور عُرفوا في العصور الوسطى في أواخر القرن الحادي عشر، وهم شعراء جوّالون كانوا يتنقلون من قصر إلى قصر ومن بلاط إلى بلاط في جنوبي فرنسا ينشدون من أغاني الحب ما شاء لهم الإنشاد. ولقد ساروا على نمط الموشحات الأندلسية والأزجال التي انتشرت في الأندلس في القرن التاسع الميلادي (وأواخر الثالث الهجري) ولقد أثبت خوليان ريبيرا المستشرق الإسباني هذا التأثر من خلال دراسات مستفيضة للموشحات والأزجال الأندلسية ومقارنتها بشعر التروبادور (جنوب فرنسا) (وألتروفير شمال فرت) وقرر في النهاية أن الزّجل والموشّح هما «المفتاح العجيب الذي يكشف لنا عن سرّ تكوين القوالب التي صبّت فيها الطرز الشعرية التي ظهرت في العالم المتحضر إبان العصر الوسيط»(٢) كما أشار بعض الباحثين الغربيين إلى غربة أفكار وشكل شعر التروبادور: يقول موريس ڤالنسي أن المذهب الذي اتبعوه في القرن الثاني عشر يختلف اختلافاً جوهرياً عمّا عرف من نماذج تبحث في الحب في التراث الغربي من حيث أن الفكرة في شعرهم تدور حول تمجيد المرأة وتقديسها وهي في مجتمع ينظر إليها نظرة اشمئزاز و يتهمها بنقص العقل، و يشير مؤلّف الكتاب الذي بين أيدينا إلى هذا الأمر وهذه النظرة من تأليه المرأة وخضوع الرجل لها خضوعاً تاماً، و يأخذه الشك في صحة هذه النصوص عندما يقابلها بحالة المرأة في فرنسا خاصة وفي أوروبا عامة، حيث لم يكن لها اعتبار

(١) انظر: أثر العرب: للعقاد (المرجع السابق)، ودراسات في الأدب العربي، جوستاف غرونباوم ترجمة إحسان عباس. ط بيروت.

(٢) دور العرب (سابق الذكر) د. عبد الرحمن بدوي.

في المجتمع و يشير إلى قرار مجمع ما كون الذي قرر بعد مناقشات طويلة أن للمرأة روحاً كما هي للرجل. و يتعجب من التناقض بين النصوص الأدبية للشعراء التروبادور التي تقدّس المرأة و بين القانون المدني الذي جعل للنساء منزلة أدنى من منزلة الرجل، وجعلهن مرؤوسات دائماً، فكيف أصبحت المرأة وثناً معبوداً في مجتمع كانت الكنيسة فيه مسيطرة وهي التي يصف آباؤها المرأة بأنها: «أعظم وباء، باب جهنم، سلاح الشيطان، حارس متقدم للنار، دودة إبليس، سهم الشيطان» وغيرها من صفات وألقاب كان يطلقها القديس جون كريزوستوم **Jean chrysostome** والقديس جون صاحب دمشق، والقديس أنطوان **Antonin**، والقديس جيروم **Jerome**. وأثبتها الوعّاظ والأخلاقيون والعلماء من بعدهم من خلال تعاملهم مع المرأة.

ولو نظرنا إلى حال المرأة في العالم الغربي في ذلك الوقت نجد أنها كانت، وإلى عهد قريب، منبوذة ضائعة الحقوق لا اعتبار لها، ولقد سار هذا المجتمع الغربي بالنسبة للمرأة حسب ما قاله القديس بولس من أنه «يجب ألاّ يسمح للمرأة أن تتلقى التعليم أو تتثقّف، بل عليها أن تطيع وأن تخدم وتسكت»، وعلى هذا فلم يكن لها حق التصرف سواء في البيع أو الشراء أو أن ترهن شيئاً أو تملكه دون إذن زوجها أو وليّ أمرها. وها هو مونتسكيو الذي عاش في القرن الثامن عشر يقرر بأن النساء من طبيعة أخرى أدنى من طبيعة الرجل، و يبني حكمه هذا على قول أنبيائه (كما يقول) الذين قرروا ألاّ تدخل المرأةُ الجنة. (١)

إذن فإنّ لكاتبنا لافيت-هوسا، في كتابه هذا، الحق في دهشته وتعجّبه من تناقض نظرة الكنيسة والقانون مع موقف فرسان القرن العاشر وما بعده الذين أظهروا بعض الحنان تجاه الجنس اللطيف، هؤلاء الفرسان الذين لم يُعرف عنهم سوى القسوة والشراسة، و يضرب مثلاً لذلك بأبطال «أنشودة رولان» التي كتبها لاريوستي في ٤٦ نشيداً وأهداها إلى الكردينال هيبوليت دست، وقد وصف فيها حروب المسلمين وشارلمان من ضواحي باريس إلى شمال إفريقيا، ورسم أخلاقيات فرسانها فلم يكن هناك سوى ضربة سيف قوية ورؤوس مقطوعة ومحاربين مخيفين. ثم يشير إلى أن المرأة لم تلعب أي دور إطلاقاً على امتداد عصور طويلة، فالمرء يحارب من أجل مَلِكه أو من أجل ربّه أو من أجل وطنه أو دينه، ولا يبدو في أيّة لحظة وجه أنثوي مال على فارس مجروح أو ميت، كما لا تبدو في أيّة لحظة صورة زوجة أو مخطوبة لإنعاس المرء والتخفيف عنه في اللحظات العصيبة. ولهذا فإنه يعجب أكثر و يتساءل كيف حصل هذا التحول؟ وكيف رقّت الأخلاق بدرجة أن أعطت المرأة هذا الدور السامي الذي سنتكلم عنه كما تكلم هو عنه في كتابه الذي نحن بصدده، هذا الدور المهم الذي لعبته المرأة في مجتمع المؤانسة خلال العصر الإقطاعي الثاني؟؟

---

(١) انظر: كتاب دي سوكولنيكي: محمد مشرّعاً، النسخة الفرنسية. ص: ٨.

و يرجع لافيت-هوسا سبب التحوّل هذا إلى محاولة الكنيسة تهذيب البارونات المحاربين وتقريبهم من الروح النصرانية بتخويفهم من النار والشيطان، وإنذارهم بالحرمان الكنسي الرهيب، وبهذا قدّمت الكنيسة —حسب رأيه— خدمة للمجتمع دون أن تقصدها وأمرت بحمل السلاح ضد أعداء الكنيسة فقط. وفرضت على كل فارس أموراً عليه اتباعها ومنها أن يكون عادلاً مخلصاً يحمي الفقراء و يساعد الضعفاء و يبتعد عن مواطن الخيانة والظلم و يساعد النساء ويحمي حقوقهن وأن يتمسك بالإيمان والمودة لزملائه وما إلى ذلك من أمور، كانت تفرض عليه خلال احتفال يجتمع الفرسان فيه مع النساء و يتقاربون، حيث تقوم النساء بمساعدة الفرسان بارتداء ملابس الحرب وهكذا بدأت النساء يحظين ببعض الاعتبار.

ولعل دهشة لافيت-هوسا كانت تزول لو اعتمد الأمانة التاريخية في سبب ظهور هذه الأخلاقيات الفروسية التي لم تكن إلاّ من أثرٍ عربي إسلامي، و يشهد بذلك بعض منصفي الغرب ومن هؤلاء جوستاف لوبون حيث يقول: «إنّ الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدّوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبة تعوّل عليها فانبثق عصر النهضة منها»(١) و يقول: «كانت أوروبة ولاسيما فرنسا، في القرن الحادي عشر الذي جرّدت فيه الحملة الصليبية الأولى من أشد أدوار التاريخ ظلاماً، وكان النظام الإقطاعي يأكل فرنسا وكانت مملوءة بالحصون التي كان أصحابها وهم من أنصاف البرابرة يقتتلون دائماً ولا يملكون سوى أناسٍ من العبيد الجُهّال»(٢) و يقول حين يتحدث عن فتح العرب لصقلية: «لم يلبث أهلوها أن اعترفوا بأن صداقة النورمان(٣) أشد وقراً من عداوة العرب».

ومهما يكن من أمر فإنه بعد الفتح العربي لأوروبا وانتشار الحضارة العربية فيها عن طريق الأندلس وصقلية وغيرهما، تسربت إليها الأخلاقيات العربية والفروسية العربية والإسلامية السامية فهذبت نفوس هؤلاء القوم وشهد بذلك بعض باحثيهم المنصفين من أمثال جوستاف لوبون. ونسوق هنا بعض فقرات من كلامه في هذا الصدد حيث يقول: «كان عرب إسبانيا يتصفون بالفروسية المثالية خلال تسامحهم العظيم، وكانوا يَرْحمون الضعفاء و يرفُقون بالمغلوبين. و يقفون عند شروطهم وما إلى هذا من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبة منهم مؤخراً، فتؤثر في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثّره الديانة. وللفروسية العربية شروطها كما للفروسية الأوروبية التي ظهرت بعدها، فلم يكن المرء ليصير فارساً إلاّ إذا تحلّى بهذه الخصال العشر: «الصلاح والكرامة ورقة الشمائل والقريحة الشعرية والفصاحة

(١) حضارة العرب: ص٣٣٩. الطبعة العربية.

(٢) الكتاب السابق. ص ٣٢٠.

(٣) قوم من الفرنسيين، انظر: ص ٣٠٤ من الكتاب السابق.

والقوة والمهارة في ركوب الخيل والقدرة على استعمال السيف والرمح والنّشاب». «ونرى تاريخ العرب في إسبانيا حافلاً بالأنباء الدّالة على كثرة انتشار تلك الخصال.... «وذاعت خصال الفروسية تلك بين النصارى، ولكن ببطء، ويمكننا أن نتمثل ما كانت عليه الفروسية النصرانية في القرن الحادي عشر عند النظر إلى أمر السيد الكنبيطور رودريك القيثاري. لم يكن هذا البطل الشهير الذي تغنّى به الشعراء كثيراً سوى رئيس عصابة بالحقيقة، أي كان محلّ مزايدة، فيبيع نفسه من العرب تارة ويبيعها من النصارى تارة أخرى، ومما حدث أن دخل مدينة بلنسية صلحاً فلم يحجم عن شيّ حاكمها الهرم على النار ليكرهه على كشف ما كان يظن وجوده في القصر من كنوز».(١)

ثم يقول: «نعم، إن إحراق السيد شيخاً ليسلب ماله يبديه لنا وحشاً غير أن طبائع أهل ذلك الزمن كانت تبيح ذلك.» «وإنما الذي لا ريب فيه هو أن قواعد الفروسية التي جاء بها العرب أدّت إلى إصلاح تلك الطبائع أكثر من جميع التعاليم الدينية». ويؤكد جوستاف لوبون في كثير من صفحات كتابه تأثير العرب المباشر في أخلاقيات أوروبا وكيف تخلّص النصارى من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم مبادىء فروسيتهم وما تؤدي إليه هذه المبادىء من الالتزامات، كمراعاة النساء والشيوخ والأولاد واحترام العهود وما إلى ذلك كما يشير إليها أكثر من باحث ومنهم بارتملي سنت هيلر حيث يقول: «أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظة في القرون الوسطى، وتعلّم فرساننا أرقّ العواطف وأنبلها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم، وأشك في أن تكون النصرانية وحدها قد أوحت إليهم بهذا مهما بولغ في كرمها.»(٢). وبعدُ، فإن ادّعاء لافيت-هوسا بأن الكنيسة هي التي هذبت الأخلاق ورسمت مبادىء الفروسية الأوروبية أمرٌ مردود لا يستقيم مع الواقع وحقائق التاريخ وشهادة علماء أوروبا نفسها.

ولما أن كان العرب هم الذين ابتدعوا —في شهادة جوستاف لوبون وغيره— روايات الفروسية، فقد تأثر الغرب أيضاً بأخبار الفروسية والمقامات ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والغرام —كما يقول العقاد— تأثراً بالغاً، ويظهر ذلك من خلال النماذج الأدبية الأوروبية طوال العصور الوسطى حتى عصر النهضة، ومن تلك الآثار الأوروبية قصص كريستيان دي تروا والنماذج الإسبانية التي أثّرت في روايات الفروسية في أوروبا كلها. ولكن بعد كل هذا ربما يقول قائل: مالنا وللفروسية هنا؟؟ ونقول إن الفروسية وقصصها ورواياتها ومصادرها المختلفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحب، والحب هو الموضوع الأساسي والمعاني التي دار حولها شعر الشعراء الجوّالين (التروبادور) في جنوب أو شمال فرنسا. ولكنه ربما يعاود القول: وما هو شأن النساء في هذا؟؟ فنقول إن هذا الأدب، أدب الفروسية والمغامرات

(١) المرجع السابق. ص ٢٧٨.

(٢) المرجع السابق. ص ٥٧٦.

العاطفية سواء أكان شعراً كما فعل التروبادور أو نثراً كما فعل الروائيون، يعتمد أساساً على الغرام الملتهب الذي يدفع الفارس المحبّ إلى خوض المخاطر وقبول تحديات الخصم أو الغريم في القتال والمبارزة حتى يبرهن لحبيبته فروسيته الكاملة التي تجعله يظفر بإعجاب الحبيبة ونيل رضاها مهما كلّفه ذلك من متاعب وجهود، فكل ما يبغيه هو طاعة المحبوبة وتنفيذ رغباتها أو أوامرها والخضوع التّام لها خضوع العبد لسيده، وهذا ما كان من أمر الشعراء التروبادور والفرسان الذين شغلوا لافيت-هوسا في كتابه هذا، كما شغلوا غيره من الباحثين.

فلئن كانت المرأة هي المحرّك الأساسي في قصص الفروسية وشعر العاطفة عند الغربيين، فهل كانت أيضاً هي الدافع الأساسي عند نظرائهم من الشعراء العرب الغزليين؟؟ يظن بعض الغربيين أن المرأة العربية لا يؤبه لها في المجتمع ولا يصل تأثيرها في الرجل إلى درجة أن تدفعه إلى المغامرة بحياته ومستقبله في سبيل إرضائها. وفي هذه الحالة نرى أننا مضطرون لإثبات اهتمام العربي بالمرأة منذ ما قبل الإسلام وما بعده، ولعل بطولة عنترة بن شداد الشاعر الجاهلي قد أشعل فتيلها حب ابنة عمه العربية الحرّة التي أبى والدها أن يزوجها منه باعتباره عبداً من جهة أمه، رغم كون أبيه عربياً حراً، وها نحن نراه يخوض المعارك و يتعرض للمهالك في سبيل أن يحصل على رضا محبوبته و ينال إعجابها فيرفع ذلك من مكانته عندها وعند ذويها. ولعل في هذه الأبيات التي نسوقها الملامح العامة للفارس المحب الذي يتحدّى الأبطال فيصرعهم واحداً تلو الآخر و يكرّ عليهم غير هيّاب بحمية ومروءة مستجيباً لاستغاثة القوم به ومعلناً أمام حبيبته أنه البطل الذي لا يُشَق له غبار والمحب المتفاني الذي يعيش و يقاتل من أجل حبيبته، وها هو يقول مُعبّراً عن كل تلك المعاني السامية:

هلاّ سألتِ الخيل يا ابنةَ مالِكٍ ... إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي
يخْبرك مَن شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم
ولقد ذكرتُك والرماح نواهل ... مني و بيض الهند تقطر من دمي
فوددْت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغركِ المتبسّم
ومدجّج كره الكُماةُ نزاله ... لا ممعنٍ هرباً ولا مستسلم
جادت له كفي بعاجل طعنة ... بمثقّف صَدْق الكعوب مِقوّم
فشككت بالرمح الأصمّ ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرّم
فتركته جَزْر السباع ينشْنَه ... ما بين قلّة رأسه والمعصم
ومِشَكِّ سابغةٍ هتكت فروجَها ... بالسيف عن حامي الحقيقة معْلِمِ
فطعنته بالرمح ثم علوتُه ... بمهنّدٍ صافي الحديدة مِخْذَم
بطلٌ كأنّ ثيابه في سرحةٍ ... يُحذى نعال السبْتِ ليس بتوأم

لمــا رأيــت الــقــوم أقــبــل جمــعــهــم   يــتــذامــرون كــررْت غير مــذَمَّــم
يــدعــون عــنــتَّــر والــرمــاحُ كــأنهــا   أشــطــان بــئــرٍ في لَــبــان الأدهــم
مــازلــت أرميهــم بــثــغــرة نحــره   ولــبــانــه حــتــى تــسـربــل بــالــدم
ولــقــد شــفــى نــفــسـي وأبــرأ ســقــمَــهــا   قــيــلُ الــفــوارس: و يــك عــنتر أقْــدِمِ

ثم يعتذر لها عن عدم حضوره لها بعد استعراض بطولا ته الخارقة قائلاً:

إنــي عــدانــي أن أزورَكِ فــاعــلــمــي   مــا قــد عــلــمــتِ و بــعــض ما لم تــعــلــمي
حــالــت رمــاحُ ابــنــيْ بــغــيــضٍ دونــكــم   وزوَتْ جــوانــي الحــرب مَــنْ لم يُــجْــرم

أفليست هذه المقطوعة رواية فروسية لفارس محبّ أقحم نفسه في ساحات الموت والخطر والتهلكة في سبيل مَنْ أحبّ وطلباً لمرضاتها؟؟ ألا تعادل في أخطارها ملحمة تحكي بطولة بطلها ومثالياته وكفاحه لنيل النصر، وترسم ألواناً جذابة من العاطفة والحب الصادق الذي يفتقر إليه بطل الروايات الأورو بية وفرسان الحب الغر بي؟؟

و بعد، فقد رأينا أن شعراء الغرب وكتّابهم قد استوحوا الآداب العربية وجعلوا من عجائب الشرق وسحره موضوع قصصهم، خاصة الشعراء الترو بادور وأدباء العاطفة والحب العفيف. وموضوع الحب العفيف المحروم والشاكي الباكي قد استغرق معظم الشعر العر بي منذ العصر الإسلامي —بغضّ النظر عما سبقه وأشرنا إليه— حتى أصبح مذهباً وجد عندَ العرب الأرض الخصبة فنما وتفرع فخيّم على أورو با وأورق تشبيباً بالمعشوقة التي أصبحت الآمرة الناهية المتحكّمة في مصير فارسها وخادمها وحبيبها الذي نذر حياته لها. وأول هؤلاء الترو بادور الذي يطالعنا على نغمات هذا التشبيب هو «جيوم التاسع»، و يظهر من شعره استخدامه لقوالب الزجل والموشح الأندلسيين. ولقد اشترك جيوم التاسع دوق أكيتانيا في الحروب الصليبية (١٠٧١-١١٢٧م) وكان على معرفة بالآثار العربية من كتب، ولم يبق من شعره إلا إحدى عشرة قصيدة، كتبها ما بين سنتي ١١٠٠-١١٢٧م، و يذكر لافيت-هوسا أن ستاً منها هي من الشعر الخليع الماجن الذي يعكس أخلاق هذا الشاعر الفاسق المحروم من قبل الكنيسة مرات عديدة، و يتكلم فيها عن المرأة بنفس الخشونة التي يجدها المرء في حكايات الفابليو **Fabliaux**، والتي يعتذر لافيت-هوسا عن ذكر نصوصها لأنها —على حد قوله— لا يمكن ترجمتها لأنها تجانب أدبنا وحشمة المحدثين. وأما الخمس الباقية فإنها على عكس الست السابقة إذ أنها تبيّن إدراك الشاعر الأمير جيوم التاسع للشعر الغنائي العاطفي في شكله الجديد، و يبدي دهشته من وجود العفة فيها ولكنه يستدرك

فيقول بأن حب جيوم حتى في قصائده العفيفة ليس إفلاطونياً (عذرياً)، بل إن العفة ليست صنعته، ومهما يكن من أمر فإنّ أمير بواتييه ودوق أكتانيا سابق الذكر فتح الطريق أمام التروبادور إلى نظم هذا النوع من الشعر العاطفي العفّ المتأثر شكلاً ومضموناً بالموشحات والزجل، إذ كان أول من صاغ بعض قصائده على الطراز العربي وشاركه بعد ذلك ماركابرو وتركامون اللذان عاشا في النصف الأول من القرن الثاني عشر، ثم تبعهم الشعراء الشعبيون الذين يتعرض لافيت هوسا لذكرهم في كتابه، فكوّنوا بعد ذلك مجموعة الشعراء التروبادور الذين كانوا يبحثون عن العيش داخل القصر وأصحابه طالبين حمايتهم في عصر الإقطاع البغيض، ومن ثم كانوا ملكاً لأسيادهم الإقطاعيين كما هم ملك لزوجاتهم اللواتي كُنّ يمنحنهن الحماية مقابل خدمة الشعراء العاطفية لهن.

ويبدو من الدراسة المقارنة أن الأفكار والمعاني التي كانت تدور في شعر التروبادور أو رواياتهم كانت تطبيقاً لقواعد الحب التي جاءت في كتاب أندريه لوشابيلان «فن الحب» **L'Art D'Aimer** وهو باللاتينية كما ذكر لافيت هوسا، يحمل عناوين مختلفة حسب الطبعات المتعددة والمخطوطات الموجودة في المكتبة الوطنية في باريس، ولكن لافيت هوسا يختار له اسم «فن الحب» الذي يشرح كل مصطلحات العناوين المختلفة لنفس الكتاب. ويعدّ هذا الكتاب في رأيه القانون المجرّد الذي يرسي الأسس لعلم العشق التجريدي كلّه في ذلك العصر، بالإضافة إلى الحب العذري أيضاً.

ولو أمعنّا النظر في كتاب لوشابيلان **De Arte Amandi** نجد أن قواعد الحب التي تجعل الفارس خاضعاً للمرأة خضوع العبد لسيده صاحب الإقطاع — كما ذكرنا سابقاً — والتي تصور تضحية الفارس في سبيل حبه العفّ الطاهر المحروم والوفيّ الذي يتعذب الفارس المحب أو الشاعر من خلاله عذاباً يغرس في نفسه الأمل بنوال رضى الحبيبة وقربها في النهاية، نقول إننا لو أمعنا النظر في دستور الحب هذا نجد أن قواعدُه في الأصل لا تختلف عن قواعد الحب العذري عند العرب التي رسمها الشعراء العرب الغزلون في صدر الإسلام حيث تأثّروا بالروح الإسلامية علاوة على ما كان لديهم من سمو الفروسية منذ الجاهلية، ورفعة الأخلاقيات العربية صفحة ناصعة كانت واستمرت في شعر الغزل العربي، وأصبحت دستوراً للعشق العفيف ضمّته كتب وصنّفه أدباء عرب كبار مثل ابن حزم في «طوق الحمامة»، الذي درس الحب فكان أوسع دراسة له في العصر الوسيط، وقد سبقه ابن داود الظاهري (٩٠٩م) في «الزهرة». والكتابان سابقان لكتاب لوشابيلان بأكثر من قرن من الزمن، ولقد سبق أن أشرنا إلى تأثر الغرب بالشرق عن طريق الإتصال المباشر وغير المباشر كما كان أثناء الحروب الصليبية، وكما كان من أمر الترجمة والاختلاط الدائم بين العرب والأوروبيين سواء في الأندلس أو في أوروبا نفسها. ومن المعروف أن أندريه لوشابيلان **A. le chepelain** قد ألف كتابه في أواخر القرن الثاني عشر، بناء على أمر من ماري دي فرانس زوجة كونت شامباني القوي وابنة الملكة إليونور التي ملكت فرنسا ثم انجلترا في

العهد الأنجلونورماندي، والتي اصطحبت معها بعض الشعراء التروبادور في البلاطيْن الفرنسي والانجليزي، وهي ابنة جيوم التاسع دوق أكيتانيا سابق الذكر.

وماري دي فرانس هذه هي التي سخّرت كريستيان دي تروا لخدمتها فكانت مصدر إلهامه في كل ما كتب من روايات وشعر عاطفي. وأعماله الأدبية في مجموعها تطبيق للمذهب الذي كانوا يخضعون له حينئذ، والذي كان معروضاً في أسلوب قانوني في كتاب «فن الحب»(١) سابق الذكر. ومع أن لافيت هوسا يُرجع تأثر كريستيان دي تروا في بعض آثاره الأدبية بأسطورة آرثر (القرن الخامس والسادس الميلاديين)، إلاّ أن كثيراً منها يخضع لقانون الحب العفيف أو المجامل —

L'Amour courtois ou l'amour galant —

و يعود لافيت هوسا ليؤكد أن كريستيان دي تروا هذا قد استوحى القصص السلتية، حيث يحتل الحب مكانة عظيمة، و يفقد الفارس في هذه القصص خشونته كما تحتل اللباقة مكانة العشق الجامح العنيف، وخاصة في رواية «لانسلو أو فارس العربة»، التي أدخلت إلى امبراطورية الحب —على حد قول هوسا— حباً رقيقاً صافياً. ولو علمنا أن هذه الرواية قد كتبت ما بين (١١٧٧-١١٨١م) لتبيّن لنا أنها متأخّرة عن أوائل الشعراء التروبادور ومتأخرة أيضاً عن كتابيْ أو دستوريْ الحب «طوق الحمامة» و«الزهرة»، وهما خلاصة الحب العذري العربي، ومصدر كتب الحب التي أتت بعدهما سواء في الشرق أو الغرب، ولما أن كان هؤلاء التروبادور قد ثبت أنهم استقوا موضوعاتهم من الشعر الأندلسي العربي، من حيث فكرة الحب النبيل أو الفروسي **amour courtois** أو **courtly love** فإن مصدر كريستيان وغيره بالتالي عربي أندلسي ذلك لأن «الإدراك الجديد للحب —في الشعر والقصة— قد نشأ على إثر اتصال الغرب بالشرق، إما في الحروب الصليبية أو عن طريق العرب في الأندلس.».(٢)

وهنا ربما يقال أن قصص الحب العفيف وملامحه موجودة في القصص اليوناني القديم، فنقول إن ملامح الحب العفيف فيها تختلف عن الحب العذري من حيث أن المرأة لم تكن ذات مكانة تؤهلها لأن يكون لها هذا التأثير على المحبّ خاصة وأنها كانت —كما رأينا في أول المقدمة— لا يُؤْبَه لها في مجتمع يشك في أن لها روحاً كالرجل، فكيف إذن تكون لها السلطة أو السلطان على المحب، حتى عند أفلاطون الذي يتطرق إلى الحب الذي نُسب إليه بعد ذلك، نجد أنه لا يحصر حديثه في الحب بالمرأة فقط بل يجعله متسعاً لكل عاطفة إنسانية تصل في النهاية إلى الكمال والمثاليات الروحية. ولعل أحداً يدخل من هذا الباب —كما فعل بيدال **Pidal** فيقول بأن فكرة الحب النبيل عند العرب كانت أثراً

(١) انظر: كتاب لافيت هوسا الذي بين أيدينا، الفصل الثامن.

(٢) انظر: الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال. ص٢٠٢.

أفلاطونياً، وتقول بأن أفلاطون لم يخلق هذا الإدراك عند العرب لأنه كان موجوداً في روحهم و يكوّن نفسياتهم منذ القدم ومازال، ولكنه زاد من أصالته وغذّاه. وسنعرض لنماذج من شعر الغزل العفيف عند العرب لتحديد الإطار العام له. وصحيح أن بعض أدباء اليونان القدماء قد رسموا خطوطاً عامة للحب مثل الأديب الروماني الشهير أوفيد **Ovide** ، وهو الذي كان موضع دراسة طويلة ولأزمان طويلة في المدارس الأوروبية في العصور الوسطى كما يذكر لافيت هوسا وغيره من العلماء، ولكن لو نظرنا إلى طبيعة هذا الحب عند هذا الأديب في كتابه «فن الحب» **Ars amatoria** (٢) والذي تأثر به رجال الاكليرك في العصر الوسيط نجد أنها تعتمد على الخلاعة ولا تلتزم الخلُق الكريم، و يؤكد لافيت هوسا أن هذا الرجل الماجن الفاسق الخليع لم يقصد في كتابه تهذيب المجتمع الذي هو فاسد سلفاً —على حد تعبيره— خُصّص للترفيه عنه فقط، وكذلك كان الأمر بالنسبة لمن نقلوه وشرحوه من كتاب العصور الوسطى من أمثال كريستيان دي تروا في بحثه الذي فُقد أو تصرّف في نصوصه رجال الاكليرك الذين ربما ألقوا جانباً القواعد (أي قواعد الحب) المستهترة، وطبقوا القواعد العامة فيه فقط باعتبار الحب فنًّا يجب أن يدرس، وهذا ما حدث في القرن الثاني عشر الميلادي في مدارس فرنسا في الجنوب. و بناء عليه، فإنّ مضامين الحب عند الشعراء التروبادور تختلف في جوهرها عن قواعد أوڤيد الروماني، وتقترب كثيراً من قواعد الحب عند العرب حيث النُّبل والحرمان والعذاب وسمو مكانة المرأة وخضوع المحب وترفّعه ورضاه بكل ما يرضي الحبيبة. وهذا ما يزيد الدلائل التاريخية والفنية ثباتاً وقوة كما بيّنا في الصفحات السابقة.

وقبل أن نستعرض بعض النماذج التي قالها شعراؤنا الغزلون والتي سار على دربهم فيها الشعراء التروبادور، لابد أن نشير إلى أنّ أندرياس كابلانوس **Andreas capellanus** في كتابه «فن الحب العفيف ـ القرن الثالث عشر الميلادي» يتبنّى فلسفة ابن سينا في الحب، ومن المعروف أن لابن سينا رسالة في العشق يبيّن فيها علامات الحب وأسبابه وما إلى ذلك، ومن هنا أصبح تأثر التروبادور بالفلسفة العربية للحب من جهات عدة، كما كان لمن ألّف في الحب بينهم من رجال القرون الوسطى أمثال لوشابيلان وغيره مصدراً لرسم قواعد الحب على أساس ما في هذه الرسالة إلى جانب طوق الحمامة.

وحين نستعرض بعض هذه القواعد التي أخذ بها الشعراء التروبادور وأدباء القرون الوسطى حسب ما جاءت في بعض مؤلفاتهم نجد ملامح التشابه الكبير بادية في معظمها، كما هي بادية في رسالة ابن سينا وطوق الحمامة والزهرة ولوي أندرياس ولوشابيلان وكريستيان دي تروا، فابن سينا مثلاً يوجه رسالته إلى صديقه وابن حزم إلى صديقه، وأندرياس إلى صديقه، ولوشابيلان إلى صديقه، وجميعهم يعطون صورة للحب و يرسمون إطاراً له من خلال قواعد متشابهة ومنها:

(٢) انظر: التروبادور ومجالس الحب، لافيت هوسا. ص ٣٨ وما بعدها (النسخة الفرنسية).

عند أندرياس : الحب أمر طبعي صالح ومشرّف من حيث المنطق.

عند ابن حزم : الحب ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة.

عند أندرياس : الحب معاناة يسببها النظر إلى جمال الجنس الآخر.

عند ابن حزم : العلّة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة والنفس حسنة تولع بكل شيء حسن. والعين هي السبب وباب النفس الشارع.

عند أندرياس : الحب الطاهر هو الذي يربط بين قلوب المحبين وهو ميل القلب والفكر ولا يسمح بغير الطّهر والعفّة.

عند ابن حزم : أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفّف «وإنّ مَنْ هام قلبه وشغل باله.... ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته، وأن يقهر دينه ثم أقام العدل لنفسه حصناً، وعلم أنها النفس الأمّارة بالسوء، وفكّر في اجترائه على خالقه وهو يراه... «وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنّة هي المأوى»».

عند أندرياس : الحب العفيف فضيلة وبرأيه أنه يزيد وينمو مع الأيام وهو ما يجب أن يطلبه كل الناس وليس غيره.

عند ابن حزم : يرى أن أفضل المحبّة محبّة المتحابين في الله ثم محبّة العشق باتصال النفوس روحانياً فهو الذي لا فناء له إلا بالموت.

عند أندرياس : يرى أن الحب يحوّل الرجل الفظ إلى وديع ظريف ويرفع الوضيع في النسب والخلق، ويجعل البخيل كريماً، ويقدم الخير للجميع.

عند ابن حزم : يرى أن المرء بالحب يجود ببذل كل ما كان «يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك كأنه هو الموهوب له والمسعيّ في حظه، كل ذلك ليبدي محاسنه ويرغّب في نفسه. فكم بخيل جاد، وقطوب تطلّق، وجبان تشجّع، وغليظ الطبع تطرّب، وجاهل تأدّب وتَفِل تزيّن وفقير تجمّل...»

وهذا ما نجده أو نجد معظمه عند ابن سينا وعند لوشابيلان وغيرهما، ولهذا فالروح في هذه المؤلفات فيما يختص بالحب العفيف وأسبابه وعلاماته وتأثيره واحدة فيها كلها، وإن كان أندرياس أقرب إلى ابن سينا في نواحٍ معينة كعدم تحريم العناق بين المحبّين على ألاّ يتعدى الأمر ذلك، ويقرب أندرياس من لوشابيلان ومن سار على منواله في أن الحب أكثر قوة خارج الزواج إذ أنه «لا يمارس سلطانه بين زوجين» وهذا ما يخالفه ابن حزم أو بالأحرى النظرة الإسلامية لهذه العلاقة التي لا تأتي بخير خاصة وأن المرء محاسَبٌ أمام الله، ولا يغني المرء سوى الخوف من الله، وماعدا ذلك زائل ومتغير «الأخلاّء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتّقين». ولقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل. وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلّق

بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله...». فمن «عرف ربّه ومقدار رضاه وسخطه، هانت عنده اللّذات الذاهبة، والحطام الفاني». (١)

وأما ما جاء من قواعد الحب في شعر الغزلين العرب في المشرق والأندلس والشعراء الترو بادور فهي أكثر من أن تحصى، وسنسوق بعض الأمثلة للمقارنة بينها وتبيان أوجه التلاقي والتشابه.

فمن حيث العفّة، يقول جميل بثينة:

لا والذي تسجد الجباه له ... مالي بما تحت ثوبها وطر
ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلا الحديث والنظر

■ و يقول كثيّر عزة:

وقال خليلي مالها إذ لقيتها ... غداة الشبا فيها عليك وجوم
فقلت له: إن المودّة بيننا ... على غير فحش والصفاء قديم

■ و يقول شاعر المرابطين أبو الوليد محمد بن يحيى بن حزم (ت. بعد القرن الخامس الهجري)

وقد عابثته الراح حتى رمت به ... لُقىً بين ثنيَيْ بُردتي وردائي
على حاجةٍ في النفس لو شئت نلتها ... ولكن حمتني عفّتي وحيائي

■ و يقول:

ومالوا إلى رجم الظنون بيننا ... إذا ما خلونا للعفاف رقيب

■ و يقول ابن خفاجة الأندلسي:

فإني والعفاف من شيمي ... آبى الدنايا وأعشقُ الحسنا

■ و يقول ابن حزم الظاهري صاحب طوق الحمامة:

أقْصَرَ عن لهوه وعن طربهْ ... وعق في حُبّه وفي عُرُبهْ

■ و يقول أبو بحر صفوان بن إدريس: (أندلسي):

بتنا نشعشع والعفاف نديمنا ... خمرين من غزلي ومن كلماته

(١) طوق الحمامة. ص ١٨٨.

و يقول الشعراء الترو بادور في العفّة ما يشابه هذا روحاً، يقول ماركابرو، وهو مقلد لجيوم التاسع المتأثر بالشعر العربي وغزله العفيف:

إن الحب الصادق العفيف والحب الزائف لن يلتقيا.

و يقول بير ينجر بالازول **Berenger Palasol** «لعل الله لا يهبني أي سعادة أبداً، إذا انقطعت لحظة عن عشق محبوبتي، هي وحدها التي ستنال احترام حبي العفيف، وقد كنت أرفضه من كل حسناء أخرى، هي وحدها التي أتعلّق بها، والتي أنقطع لحبها، وهي وحدها التي تملكني، إن تقديم السرور لي بعيداً عنها يجعلني منفياً في عزلة».

و يقول برنارد دي فينتادور **B. de. Ventadour** «لا ضرر من الحب الذي سيبقى خالداً ما دام عفيفاً.» ومن حيث الحرمان والألم الناتج عنه ورضى المحب بهذا الألم واستشعاره بالسعادة مع ألمه، يتلاقى الغزلون العرب مع الترو بادور، أيضاً، يقول ابن حزم: «الهجرُ على ضروب: فأولها هجر يوجبه التحفظ من رقيب حاضر، وإنه لأحلى من كل وصل،.... فحينئذ ترى الحبيب منحرفاً عن محبه، مقبلاً بالحديث على غيره، معرضاً بمعرض لئلا تلحق ظنّته، أو تسبق استرابته..... ثم هجر يوجبه التذلل، وهو ألذ من كثير الوصال، ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه، واستحكام البصيرة في صحة عقده، فحينئذ يظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر مُحبِّه.... ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعض الشدة، لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى، يعدل ما مضى، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة، وموقفاً من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا. وهل شاهد.... ألذ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب.... واجتمع فيه محبّان قد تصادما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلاً و بدأ بعض الهجر.... فابتدأ المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل.... فطوراً يدل ببراءته، وطوراً يرد بالعفو و يستدعي المغفرة، و يقرّ بالذنب ولا ذنب له...(١) وختما أمرهما بالوصل الممكن...، ثم هجر الملل.... وأحرى لمن دهي به ألا يصفو له صديق،.... ولا يصبر على إلف.... ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المحبّين وجعلناها في المحبوبين، فهم بالجملة أهل التجنّي والتظنّي والتعرض للمقاطعة.... ثم هجر القِلى وهنا ضلّت الأساطير ونفذت الحيل وعظم البلاء....الخ». وهذه المراتب من الهجر والحرمان الذي يسبب الألم للمحبّ نجدها عند شعرائنا ثم عند الترو بادور، ومع ذلك ترى المحب لا يشكو بل يتألم في صمت وخضوع، وإن شكا فلاستعطاف محبوبته، و يظل صابراً ثابتاً على حبه –إن كان صادقاً– متقبلاً كل قسوة من محبوبته حتى ولو أدى به إلى الموت.

---

(١) هذه المعاني والأحوال تدور كثيراً في شعر العباس بن الأحنف.

■ يقول عروة بن أذينة فقيه المدينة المنورة الذي ذاق من عذاب الهجر والفراق الكثير:

إنّ التي زعــمــتْ فــؤادك مــلّــهــا ... جُـعـلـت هـواك كما جـعـلـت هـوىً لها
فــبــك التي زعــمــت بهــا وكــلاكما ... يــبـدي لـصـاحـبـه الـصـبـابَـةَ كـلـهـا
مـنـعـت تحـيّتها فـقـلـت لـصـاحـبي : ... مـا كـان أكـثـرهـا لـنـا وأقـلّـهـا

■ و يقول قيس بن ذريح :

لـقـد عـذّبْـتَـنـي يـا حـبَّ لـيـلـى ... فَـقَـعْ إمـا بمـوتٍ أو حـيـاةِ
فـإن المـوت أروحُ مـن حـيـاةٍ ... تـدوم على الـتـبـاعـد والـشّـتـاتِ

■ و يقـول :

إلى الله أشـكـو مـا ألاقـي مـن الهـوى ... ومـن حُـرَقٍ تـعـتـادنـي وزفير
ومـن ألـمٍ للـحـب في بـاطـن الحـشـا ... ولـيـل طـويـل الحـزن غير قـصير

■ و يقـول :

و بين الحـشـا والـنَّـحـر مـنـي حـرارة ... ولـوعـةُ وجـدٍ تـتـرك الـقـلـب سـاهـيـا
تـمـرّ الليـالـي والـشـهـور ولا أرى ... ولـوعـي بهـا يـزداد إلاّ تـمـاديـا

■ و يشكو جميل بن معمر هجر بثينة له ولكنه مع ذلك راض بأقلّ القليل منها، فيقول:

وإنـي لأرضـى مـن بـثـيـنـة بـالـذي ... لـو أبـصـره الـواشـي لـقـرّت بـلابـلُـه
بـلا و بـأنْ لا أسـتـطـيـع و بـالمـنـى ... و بـالأمـل المـرجـوّ قـد خـاب آمـالـه
و بـالـنـظـرة العجلى و بـالحولِ يـنـقـضي ... أواخـره لا نـلـتـقـي وأوائـلُـه

■ ثم يقـول :

فـلا تـقـتـلـيني يـا بـثـيْـنُ فـلـم أُصِـب ... مـن الأمـر مـا فـيـه يحـلّ لـكـم قـتـلـي

■ و يقـول :

لهـا في سـواد الـقـلـب بـالحـب مـيـعـةٌ ... هـي المـوت أو كـادت على المـوتِ تـشـرفُ

■ و يقــول :

وأفـنـيـت عـمـري في انـتـظـار نـوالهـا وأبـلـيـتُ فيهـا الـدهـر وهـو جـديـد

إذا قـلـتُ مـا بـي يـا بـثـيـنـةُ قـاتـلـي مـن الحـب قـالـت : ثـابـتٌ و يـزيـد

■ و يقـول ابن حـزم :

فـلا تـيـأسـي يـا نـفـسُ عـلى زمـانـنـا يـعـود بـوجـهٍ مـقـبـل غير مـدبـرِ

كما صـرف الـرحـمـن مُـلْـكَ أمـيّـةٍ إليهـم، ولـوذي بـالـتَّـجـمّـل والـصـبـرِ

■ و يقــول :

لـقـد قـرّت الـعـيـنـان بـالقـرب مـنـكـمُ كما سـخـنـت أيـامَ يـطـويـكـم الـبـعـدُ

فـللّــه فيما قـد مـضـى الـصـبـرُ والرضـى وللّـه فيما قـد قـضـى الـشـكـر والحـمـدُ

■ و يقول ابن زيدون في موشحةٍ يخاطب ولاّدة:

تِهْ ، أحتملْ ، واستطلْ : أصبِرْ

وعِزّ : أهُنْ ،

وولّ : أقْبلْ، وَقُلْ : اسمعْ

ومُرْ : أُطِع .

و يشارك الشعراء التروبادور في هذا الحرمان والصبر والوفاء وتحمّل القسوة على رحمة تهبها المحبوبة يوماً. يقول سوردل Sordel : «مع أن الحب يسبب آلامي وموتي، فإنني بعيد عن الشكوى، وإذا متّ من الحب، فذلك أقل شيء بالنسبة لأحب وألطف النساء، وإنني أنظر لهذا القَدَر كأنه سعادة، إذا سُمح لي بالأمل بأن يوماً ما ستتنازل وتمنحني رحمتها، فما تكون الآلام التي أكابدها، أبداً، إنها لن تسمع مني أقل همس» .

و يقول جيوم دي سانت — ديدييه guillaume de saint-Dédier

«إن آلام الحب الذي تنزله في قلبي هذه الحسناء والتي أكون عبدها الخاضع والمتفاني في سبيلها، ستسبب موتي. مع أنها تستطيع أن تجعلني سعيداً، إذا سمحت بشعرة فقط من شعرها الذي يتساقط فوق معطفها، أو خيطاً من خيوط نسيج قفازها. و بإشارة من رعايتها أو بأكذوبة منها بنيّة الرضى والنفع، فإنها كانت تستطيع أن تحبسني، إذا أرادت ذلك — في فورات سرور دائم، إنها — في الواقع — كلما أعيتني بالجفاء والقسوة، كلما أحببتها بإخلاص وشدة.» .

و يقول برنارد دي ڤينتادور:

«لقد جرحني الحب بطريقة لطيفة، حتى أن قلبي يشعر من خلال التعاسة بإحساس لذيذ، إنني أموت من الألم مئة مرة في اليوم، وأعود للحياة من الفرح الشديد مئة مرة يومياً، فصيبتي من نوع غريب جداً، ولطيفة جداً حتى أن هذه المصيبة أو المضرّة نفسها مفضّلة على كل خير، ولأن لهذا الألم سحراً كبيراً، فكم تصبح المسرات أكثر سعادة وفرحاً بعد هذه الآلام.».

و يقول آرنو دي ماريّ **Arnaud de Marevil**

« إن المضرّات التي تسببها لي قسوتك لطيفة بالنسبة لي وناعمة، لأنني آمل منها بالثواب».

و يقول جيوم دي كابستان:

«قسوتك، آه أيتها السيدة الحسناء، لا تفزعني، إذا سمح لي بالأمل في أن أنال منك بعض الحظوة، في حياتي، كان ذلك سهلاً. سالياً من خلال هذه الفكرة الآلام التي أصبحت بالنسبة لي عزيزة وحلوة. إنني متأكد أن الحب سيعوّضني عن آلامي وثباتي. وعلى المحب الرقيق أن يغضّ الطرف عن القسوة المستمرة وعليه أن يتألم بطيب خاطر ليستحق أحسن مصير».

■ و يقول برنارد دي ڤينتادور:

«أيها المخلوق الحلو الساحر، البخيل، اللطيف المتكبر، المليح الجميل فوق ما ينبغي، يا حبيبتي التي لا أحب سواها، أسألك باسم الرحمة فقط أن تشفقي عليّ».

وفكرة الموت تدور دائماً في هذا الشعر العفيف، بل إن هؤلاء المحبّين يؤكّدون أنّ من لا يحبّ فإنه ميّت أو حجرٌ أو صخر، بل لا جمال في حياته أبداً وليس لديه شعور إنساني، ولقد شارك العرب والأوروبيون في هذا الرأي، يقول الأحوص:

إذا أنــت لم تــعــشــقْ ولم تــدرِ مــا الهــوى ... فــكــن حَجراً من يـابس الـصخـر جلـمـدا

■ و يقول عمر بن أبي ربيعة:

إذا أنــت لم تــعــشــق ولم تــتْـبَـع الهـوى ... فــكُــنْ صــخــرةْ بـالـحِجْـر من حَجَرٍ أصمْ

■يقول العباس بن الأحنف:

يـــا لائمـــي في الـــعـــشـــق مَـــهْ ... لا خــيــرَ فــيــمــن لــيــس يــعــشَــقُ

والأمثلة في الشعر العربي في هذا الموضوع أكثر من أن تحصى، فالمحب يرى الحب هو الحياة والسعادة مهما سبّب من آلام وجراح، بل إنه في نظره لا قيمة له إن لم يكن موجعاً بل إن لم يوصل صاحبه إلى الموت والهلاك وهذا ما يقوله مجنون ليلى:

إني أرى رجعات الحب تقتلني ... وكان في بدئها ما كان يكفيني
لا خير في الحب ليست فيه قارعة ... كأن صاحبها في نزع موتون
ألقى من الحب تارات فتقتلني ... وللرجاء بشاشات فتحييني

■ ويقول:

قالت جننْتَ على أيسٍ فقلت لها ... الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيقُ الدهرَ صاحبهُ ... وإنما يصرع المجنون في الحين

ويقول الشاعر الترو بادور برنارد دي ڤينتادور: وهو مَنْ يردّد وراءه كل الشعراء الترو بادور ما يقول عن عقيدة واقتناع:

«إنه ميت حقيقة هذا الذي لا يحسّ في قلبه الطعم الناعم للحب. كيف تسير الحياة دون حب؟؟ كيف تكون إن لم تكن أسفاً للآخرين؟».

ويقول برنارد دي بورن:

«دون شك-ينبغي أن أموت من حب أجمل واحدة في العالم.».

ويقول برنارد دي ڤينتادور:

«أنا تحت رحمتها، ولو سرّها قتلي فلسوف تجدني راضياً».

ولا يقف حال المحبين عند هذا الحد، بل إنهم يرتضون أن يكونوا أسرى تابعين خاضعين بل عبيداً للمحبوبة، وقد ورد هذا المعنى كثيراً في الشعر العربي ونورد نموذجاً منه على سبيل المثال، يقول عمر بن أبي ربيعة:

فكّي أسيراً يا عُثَيْمَ، فإنه ... خَلَطَ الحياءَ بعفةٍ وتكرُّم
أنت الأميرة فاسمعي لمقالتي ... وتفهّمي من بعض ما لم تفهمي

■ ويقول:

فاتّقي ذا الجلال يا أمّ عمرو ... واحكمي في أسيركم بالصوابِ

■ و يقول العباس بن الأحنف:

يا بني آدمٍ تعالوا نُنادي ... إنما نحنُ للنساءِ عبيدُ

■ و يقول:

قولاً لمن كتب الكتابَ بكفّه ... ارحمْ، فديتُك، ذلّتي وخضوعي

■ و يقول ابن زيدون ذو الوزارتين: مخاطباً ولاّدة:

الدهرُ عبدي لمّا ... أصبحتُ في الحبِّ عَبْدَك

■ و يقول:

يا نازحاً وضميرُ القلب مثواهُ ... أنْسَتْك دنياك عبداً أنت مولاهُ

■ و يقول العباس بن الأحنف:

فإن كنتِ لا تدرين ما العشقُ فانظري ... إليّ فإن العشق صيّرني عبدا ؟

■ و يقول:

الحبُّ سخّرني لكم ... تسخير عبدٍ ليس يُعْتَق

و يقول بير ڤيدال، الشاعر الترو بادور:

« بما أنني أستسلم كذلك تماماً ودون أي ضمان لسلطتها، أعليها أن تطردني أيضاً؟؟ إنني عبدها، وتستطيع أن تبيعني. ».

و يقول برنارد دي ڤينتادور:

« آه سيدتي العزيزة !! أنا لك وسأكون لك دائماً. عبداً متفانياً في تنفيذ أوامرك ».

و يقول أيضاً:

«يا سيدتي الطيبة، لا أطلب منك سوى أن تقبليني خادماً، وسوف أسهر على خدمتك سهري على أحسن سيد لي.».

و يعتبر شعراء الغزل العفيف أنَّ الموت في سبيل المحبوبة والحب كالشهادة في الحرب، ولهذا فهم يتقبلون عذاب المحبوبة وجبروتها المفضيين بهم إلى الموت بكل صدر رحب بل و بسعادة بالغة تجعلهم يوكلون حياتهم إلى محبوبتهم التي لها الحق بالتصرف فيها حسب مشيئتها، وفي هذا يقول جميل بن معمر:

خليليّ، ما ألقى من الوجد باطنٌ ... ودمعي بما أخفي الغداةَ، شهيدُ

يقولون: جاهديا جميل: بغزوةٍ ... وأيّ جهادٍ، غيرهن، أريد!

لكل حديث بينهنّ بشاشةٌ ... وكل قتيلٍ عندهنّ شهيدُ

■ و يقول ابن حزم الأندلسي :

فـإنْ أهـلِـكْ هـوى أهـلِـكْ شـهـيـداً — وإنْ تَـمْـنُـنْ بـقـيـتُ قـريـرَ عـيـنِ
روى هـذا لـنـا قـومٌ ثِـقـاتٌ — ثَـوَوْا بـالـصـدقِ عَـن جَـرْحٍ ومَـيْـنِ

■ و يقول العباس بن الأحنف :

فـرشّـوا على قـبـري مـن المـاء وانْـدُبـوا — قـتـيـلَ كَـعـابٍ لا قـتـيـل حـروبِ

■ و يقول أيضاً :

إنـي لأصـبـح في جـهـاد مـنـكـم — كَـمُـوحِّـدٍ يـؤذيـه ديـنُ الـمُـلْـحِـد
فـلئن هـلـكـتُ لـتُـصـبِـحَـنَّ أثـيـمـةً — ولأرْزَقَـنَّ شـهـادةَ المـتـشـهّـد

وأما التروبادور فقد قرروا أيضاً أن الموت في سبيل الحب شهادة ولعل الشاعر الإنجليزي تشوسر يمثّل هذه الفكرة، ومن المعروف أنه قد عاش في فرنسا مدة طويلة وكان يتقن اللغة الفرنسية كلاماً وكتابةً، كما أنه من المعروف أيضاً أنه يعود في أصله إلى أصلٍ نورماندي. ولو نظرنا إلى معظم شعره نراه يسير على نفس نهج الشعراء التروبادور الذين تأثروا في الموشحات العربية الأندلسية تأثراً بالغاً نحن في صدد رَسْم أُطره المختلفة، شكلاً ومضموناً. وها هو يقول:

«إن مُتّ بعد ذلك، كنت شهيداً مع الخالدين»

ومن المعاني والصور المشتركة بين الغزلين العرب والتروبادور وصف حالة المحب حين يرى محبوبته فجأة أو يسمع ذكرها أو يقابلها صدفة، فإن الإرتباك والخوف واصفرار الوجه والتلعثم والدهشة والتيه وشرود الفكر كل ذلك يهبط على المحب فيغيّر حاله و يضطرب كيانه كله. ولو أحصينا ما جاء في هذه المعاني لوجدنا منها الكثير، ونسوق على سبيل المثال: قول عروة بن حزام:

ومـا هـو إلاّ أن أراهـا فـجـاءةً — فـأبـهـت حـتـى مـا أكـاد أجـيـبُ (١)
أبـثـك مـا ألـقـى وفي الـنـفـس حـاجـةٌ — لهـا بين جـلـدي والـعـظـام دبـيـبُ

■ و يقول قيس بن الملوّح :

وداعٍ دعـا إذ نحـنُ بـالخـيـف مـن مـنـى — فـهـيّـج اطـراب الـفـؤاد ومـا يـدري
دعـا بـاسـم لـيـلـى غـيـرهـا فـكـأنما — أطـار بـلـيـلـي طـائـراً كـان في صـدري

(١) الأغاني. أخبار عروة.

■ و يقـــول :

إذا ذكــرت لــيــلــى بــكــيــتُ صــبــابــة   لــتــذكــارهــا حــتــى يــبــلّ الــبــكــا الخدّا

■ و يقـــول :

أتــــاركـــتــــي للــمــوتِ أنــتِ فــيّــت   ومـــا لــلــنــفــوسِ الخــائــفــاتِ بــقــاء

■ و يقـــول :

كـــأنّ فـــؤادي في مخــالــب طـــائـــر   إذا ذكــرت لــيــلــى يــشــدّ بهــا قــبــضــاً

كـــأنّ فـــجـــاج الأرض حـــلـــقـــةُ خـــاتم   عـــلـــيّ فـــما تـــزداد طـــولاً ولا عـــرضـــا

■ و يقول عروة بن حزام :

وإنـــي لـــتــعــرونــي لــذكــراك رعــدةٌ   لهـــا بين جــلـــدي والــعــظــام دبــيــبُ

■ و يقول جميل :

وإنـــي لــيُــنــســيــنــي لــقـــاؤك كـلما   لــقــيــتــك يــومــاً أنْ أبــثــك مــا بــيــا

و يـقول ابن حزم الأندلسي في وصفه للمحب وعلامات حبه: «ومنها بَهتٌ يقع، وروعة على المحب عند رؤ ية من يحب فجأة، وطلوعه بغتة، ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤ ية من يشبه محبوبه، أو عـنـد سماع اسمه فجأة» «ومن أعراضه الجزع الشديد، والحمرةُ المقطعة» ونجد هذه العلامات في قواعد الحـب عـنـد أنـدر يـه لوشابيلان وقد طبّقها الشعراء الترو بادور وظهر ذلك في شعرهم، ومن هؤلاء هيج دي لاباشيلري حيث يقول:

«وفي هـذه اللحظات السعيدة حيث أتمتع بسحر لقائك، إنني مضطرب جداً وحيران جداً، حتى أنني لا أجرؤ على أن أعبّر لك أنت بالذات عن المشاعر التي توحين بها إلي أنت وحدك».

و يقول برنارد دي ڤينتادور:

«على الفور، حين ألمح حبيبتي، يستولي علي خوفٌ مفاجىء، تضطرب عيني، و يكمد وجهي، وأرتجف كالورقة التي يحرّكها الهواء، ولا يكون لدي عقل طفل.»

وهذا تطبيق للمادتين ١٥ و١٦ من «قوانين الحب» عند لوشابيلان وتقول هاتان القاعدتان: «على كل محب أن يمتقع لونه في حضور حبيبته». «وعلى قلب المحب عند رؤ ية حبيبته فجأة أن يختلج».

وهناك من المحبّين سواء من العرب أو التروبادور ما يجد اللذة في النوم لأنه يرى محبوبته و ينعم بالوصال و يتمنى لذلك ألاّ ينتهي حلمه أبداً، وممن قال بذلك، جميل بثينة:

تحدثني الأحلام أني أراكم   فيا ليت أحلام المنامِ يقينُ

■ و يقول العباس بن الأحنف:

أشكو إلى الله أنّ لي سكناً   أبصرْتُه في المنام غضبانا
أبصرته مُعرِضاً فيا عجباً   يهجرني نائماً و يقظانا

أما الشاعر التروبادور أرنو دي ماريّ فيقول:

« يبدو لي غالباً أثناء نومي أنني معك، وأشعر بمتعة عذبة جداً، بمتعة حيّة حتى أنني أرى حلمي تعاسة، عندما ينقطع هذا الحلم الساحر. نعم عندما أنتبه أكون فريسة للرغبات التي تقتلني، وأرتضي أن يصبح مثل هذا الحلم السعيد أبدياً».

و يقول برنجير دي بالازول:

« بذلت جهدي، لأقصي نفسي وأبعدها عنك، آه سيدتي العزيزة، هذه هي شدة حبي، ومن المستحيل أن يفترق قلبي عن صورتك، حتى في منامي المستديم أتخيّل كثيراً أنني أمرح وأضحك معك. وأتذوّق السعادة العظيمة، ولكن عندما أصحو، أرى وأعرف وأتحقق من أن هذه السعادة الوهمية قد تحوّلت إلى ألم حقيقي».

ولقد نغّص الرقيب والواشي حياة المحبّين العرب والتروبادور، واشتكوا كثيراً من فضول هؤلاء الذين لا يرتاحون إلاّ إذا افترق المحبّان وتشتّت شملهما، ولذا فإنّ هؤلاء يسعون دائماً لحرمان المحبين من حلو اللقاء وجميل الوصال. ولهذا كان المحبّون يتحاشونهم خشية الريبة. يقول جميل:

وإني لأرضى من بثينة بالذي   لو أبصره الواشي لقرّت بلابله

■ و يقول مجنون بني عامر:

وأحبس عنك النفس والنفس صبّة   بذكراك والممشى إليك قريبُ
مخافة أن تسعى الوشاةُ بظنّةٍ   وأحرسكم أن يستريب مريبُ

■ و يقول قيس بن ذريح:

فإن يحجبوها أو يحلْ دون وصلها   مقالةُ واشٍ أو وعيد أمير
فما برح الواشون حتى بدت لهم   بطون الهوى مقلوبةً لظهور

■ و يقول عروة بن حزام :

فـيـا واشـيـيْ عـفـراء ويحكما بمـن ... ومـا وإلى مـن حـيثما تـشـيـان

■ و يقول جميل :

فليت وشاةَ الناسِ بيني و بينها ... يدوف لهم سمًّا طماطمُ سودُ (١)

■ و يقول العباس بن الأحنف :

مَـنْ لـي بمـن أخـشـى الـوشـا ... ة عـلـيـه في إتـيـانـه ؟؟

والحـب شـيء قَـلَّ مَـنْ ... يـقـوى على كـتـمـانـه

■ و يقول قيس بن ذريح :

سعى الدهر والواشون بيني و بينها ... فقطّع حبل الوصل وهو وثيقُ

واكتم أسرار الهوى فأميتها ... إذا باح مزاح بهن بروق

■ و يقول إسماعيل بن يسار أحد الموالي، في الرقيب:

إيـه بما جـئـت على رقْبَـةٍ ... بعد الكرى والحيُّ قد نَوّموا

ودونَ مَا حاولتُ إذ زرتكم ... أخوك والخالُ معاً والحَمُ

■ و يقول العباس بن الأحنف :

فيا ربّ لا تشمتْ بنا حاسداً لنا ... يراقبنا من أهل فوز ولا أهلي

وما بيننا من ريبةٍ فيُراقبا ... ولا مثلُها يُرمى بسوءٍ ولا مثلي

■ و يقـول :

ومراقبٍ رجَعَ السلام بطرفه ... ومحيَّرٍ لم يستطع تسليما

■ و يقول ابن حزم :

وربَّ رقيبٍ أرقبوه فلم يزلْ ... على سيّدي عمداً ليبعدني عنه

■ و يقـول :

على سيّدي مني رقيبٌ محافظٌ ... وفيٌّ لمن والاه ليس بناكثِ

(١) الطماطم : جمع طمطم وهو من في لسانه عجمة.

■ و يقـــول :

عـجـبـتُ لـواشٍ ظـلّ يـكـشـفُ أمـرنَـا   ومـــا بـــســوى أخـبـــارنـــا يـتـنـفَّـسُ

و يشارك الشاعر الترو بادور برنارد دي ڤينتادور في هذا فيقول:

« الوشاةُ المفترون أبعدوني عنك ، إنهم يراقبون و يتجسسون»

هذه المعاني التي دارت في شعر الشعراء الغزليين العرب والشعراء الترو بادور إلى جانب موضوعات أخرى مشتركة مثل الرسول بين المحبين والسهر وملازمة طيف المحبوبة ووصفها وصفاً مادياً وروحياً وما إلى ذلك من معانٍ تؤكد كلها أن الْتقاء الفكر الغربي بالفكر العربي وتأثّر الأول بالثاني كان أمراً مشهوداً لا مرية فيه ولا مبالغة ، و يكفي أن ننقل شهادة بعض الكتّاب الأورو بيين بهذا مثل رو بير بريفو حيث يقول: «إن فلسفة الفضيلة ، فلسفة الحب التي طال ارتباطها بالشعر العاطفي المقتبس من الأندلس ، والتي سادت دوائر الحب في بروڤانس ، استمدت من الإسلام أصولها . والشعراء الترو بادور المتتلمذون على الشعراء العرب لم يحيدوا عن استغلال الفلسفة الصوفية ، إذ لم يكن في وسعهم إلا أن يستعينوا بمذاهب الطهر والعفّة ، ولذلك حرصوا على أن يستمدوا العواطف التي يصفها العرب بالطهر، من الشعر الأندلسي القادر على تزو يد فنهم بأناقة خاصة ، غير أنهم لم يتوسلوا إلى ذلك إلا بمحاكاة أسلوب ذلك الشعر دون أن يولوا الدوافع التي أوحت به اهتماماً جدياً . وقد تعرضت منظوماتهم لسوء الفهم نظراً إلى أنهم استغلوا المثالية العربية ، وخلعوا على شعرهم مظهرها ، وهي في واقع الأمر غريبة عنه ...

لقد كانوا يكتفون حين أرادوا كشف أسرار النفس ، والتعبير عن المبادىء السامية باقتباس نغمة الشعر الأندلسي وطريقة نظمه... كانوا يجدونَ فيه مختلف النماذج الجاهزة للمضمون والأسلوب المهذب .» (١) ولعل أهم ما أثر في الشعراء الترو بادور هو الشعر العفيف إلى جانب بعضٍ من الشعر الماديّ الذي انتقل إلى الغرب وانتشر انتشاراً واسعاً ، كما كان لزجل ابن قزمان خاصة والموشحات عامة أثر بالغ إلى جانب كتب الحب التي رسمت قواعده مثل طوق الحمامة لابن حزم والزهرة لابن داود . هذا من حيث الشعر، وأما النثر، فقد سبق أن ذكرنا بعض المصادر العربية التي تغلغل تأثيرها في القصص الغربي بوجه عام وأهمها ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والمقامات ثم المصادر الإسلامية من عقائدية وصوفية وغيرها بددت ظلمات الفكر الغربي قروناً طويلة من الزمن .

ونختم هذه الصفحات بالإشارة إلى «مجالس الحب» القانونية التي أشار إليها لافيت هوسا والتي وجدها في كتاب «فن الحب» لأندر يه لوشابيلان . ولعلّ لافيت هوسا محقّ حينما اعتبر أن هذه المجالس

(١) انظر : رحلة الأدب العربي إلى أورو با : محمد الشوباشي ، ص١٧٦ .

التي كانت تقضي بين المحبّين والتي كانت تترأسها النساء بل سيدات المجتمع المرموقات، فيخضع من ثمّ المحبون إلى أحكامهن طواعية، مجرد مجالس لاهية تشبه «صالونات الأدب» التي عُرفت بها بعض أديبات العصر اللواتي اتخذن لأنفسهن صالوناً(١) منذ القرن الثاني عشر الميلادي. و يذكر أن الشعر الغنائي، (و يقصد به شعر التروبادور) قد ولد وتطور عندما غدت السيدات الشهيرات يخلقن دوراً مشابهة، و يضرب مثلا بالملكة إليونور صاحبة أكيتانيا وابنتها ماري كونتيسة مقاطعة شامباني. ولكنه بعد ذلك يشير إلى أن ما يُسمى بـ«توقيف الحب»، وهو اصطلاح قضائي أكثر منه عاطفي، قد ابتدعه مارتيال دوڤيرني **Martial D'Auvergne** سنة ١٤٦٦م، إذ ألّف كتاباً يحمل نفس الإسم «توقيف الحب» و بناه على محاكمات وهمية خيالية في مسائل الحب، ولما أن كان نائباً في البرلمان وكان على اطلاع على بعض النماذج البشرية، اتخذ لمحاكماته الوهمية نماذج من الفاسقين، كما يشير هوسا إلى نائب برلماني آخر هو جوهان دي نوستر يدام الذي يؤكد وجود أقضية ومحاكم نسائية مكلفة بالحكم حكماً نهائياً في المسائل العاطفية التي نوقشت من قبل الشعراء في محاوراتهم الشعرية **Tensons** ، فيقول:

«إن المحاورات الشعرية كانت مناقشات حب تقام بين الفرسان والسيدات الشاعرات البليغات معاً عن بعض مسائل الحب الجميلة والرقيقة، حيث كانوا لا يستطيعون الإتفاق عليها، فيرسلونها (للحكم فيها) إلى السيدات الشهيرات الرئيسات اللواتي يتناولن الغزل الصريح السائد في (مقاطعات) سينْي **Signe** وفي بييرفيه **Pierre-Feu** أو في رومانا **Romanin** أو في غيرها، وفي هذه المناطق كانوا يُجرون التوقيف الذي كان يسمى (توقيف الحب)».(٢) ولكن إلى أي مدى كانت فعالية هذه المحاكم، وهل هي محاكم قضائية بالمفهوم الدقيق لكلمة «قضاء»؟؟ إننا نشك مع لافيت هوسا في أن تكون ذات صبغة قضائية جدّية أو ذات صبغة رسمية نظامية، بل الأرجح أنها كانت مجرد صالونات أدبية بمعناها الحديث تقريباً، حيث تناقش المسائل والأعمال الأدبية والأفكار النقدية حول موضوعات أدبية وإنسانية مختلفة ومنها القضايا العاطفية، مثل النادي أو الصالون الأدبي الذي كان لمدام دي ستايل (١٧٦٦-١٨١٧م) كما كان لأمها من قبل نادٍ أو صالون مشابه فتحت مدام دي ستايل عينيها عليه وكان ملتقى الأدباء ومركز نشاط فكري وسياسي خطير. وقد سبق هذين الصالونين نواد أخرى وأقلها صالون رامبوييه (١٦٢٤-١٦٤٨م)، ولما أن كان أمر الأندية أو الصالونات الأدبية هذه معروفاً منذ القرن الثاني عشر الميلادي كما أكّد ذلك لافيت هوسا في إشارته إلى هذا حين تكلم عن تطور مكانة المرأة رغم أنّ هذه الصالونات ليست بالمفهوم الحديث للكلمة، إنه رغم ذلك يشير إلى وجود مجتمع نسائي أصبح يهتم بأمور الأدب لطبيعة الحياة التي كانت في القصور والبيوتات الكبيرة آنذاك، ولعل تجمعات السمر النسائية هذه أو الندوات النسائية هي التي كانت تقوم فيها المناقشات ومن ثم إجماع الآراء على تخطئة تصرّف محب أو تصويب آخر، وطرح الأسلوب اللائق

(١) الشعراء التروبادور. لافيت هوسا. ص ٢١ ومابعدها (نسخة فرنسية).

(٢) الكتاب السابق. ص ٢٧ (فرنسية).

للتعامل من حيث وجهة نظر هؤلاء السيدات اللواتي كان يعتدُّ برأيهن كمثقفات ثقافة حديثة — بالنسبة لعصرهن — صاحبت الازدهار المادي، فطورت معه في القصور نموذجاً للحياة الإجتماعية دعت النساء إلى مشاركة الرجال بالعيش في ظل الحضارة الحديثة الآتية من الشرق العربي كما سبق أن ذكرنا(١). وبهذا تكون مجالس الحب التي ذكرها لوشابيلان هي ندوات تقتصر المناقشة فيها على مسائل اللياقة واللباقة وأدب الأنس والملاطفة الرقيقة وتحديد ما يجب للمحب وما عليه، ولهذا فإن لفظ «القضاء النسائي» أو «الأحكام القضائية» لم يكن نتيجة قضاء حقيقي تترأسه النساء وإنما كان يعني «مدرسة الخصال الحميدة» كما يقول لافيت هوسا، والتي كانت ميداناً لتلقي أساليب التربية الخلقية والتهذيب السلوكي بين الجنسين وتعليم فن الحب العفيف. و يؤكد هذا ما ذكره لافيت هوسا حين أشار إلى «فن الحب» لأندر يه لوشابيلان، والذي كان موجهاً لصديقه الذي كان توّاقاً لمعرفة كيفية السلوك مع السيدات ذوات المستوى الرفيع. وإذن، فلا شيء أكثر من محاورات وفتاوي عاطفية تدور حول تطبيق شروط الحب العفيف التي مرّت معنا في الصفحات السابقة، حين المقارنة بين الشعراء الغزليين العرب والترو بادور التي رسمها عشّاق العرب وحدّد أطرها بعد ذلك ابن داود في «الزهرة» وابن حزم في «طوق الحمامة»(٢). وسار على دربهم فيها الشعراء الترو بادور. وتلك المحاورات حريٌّ بها أن تكون خلال ندوات أدبية شاركت فيها المرأة الغربية، وخاصة المرأة البروڤانسية التي كانت أول أوروبية تشتغل بالأدب مجاراة لنساء العرب الأندلسيات المعاصرات اللواتي كنّ يتمتّعن بقدر كبير من الثقافة وبمكانة مرموقة أوصلتهن في كثير من الأحيان إلى تولّي مناصب رئيسية في الدولة، إلى جانب اشتغالهن بالأدب ونظم الشعر ونسخ الكتب والتحكيم بين الشعراء، وأحياناً بتأثيرهن في سياسة الرجال في عصرهن. (٣)

وربما كان مفيداً الإشارة إلى أن المحاكمات العاطفية هذه كان لها نفس المعنى عند العرب، حيث كان المحبّون يختصمون إلى قريب أو صديق موثوق به أو ذي رأي يُعتد برأيه ليبتّ في المخاصمة ويحدّد الظالم من المظلوم و يرى فيها حكمه الصادر عن رؤية خاصة لا يحدّدها قانون من القوانين التي تسير على هديها المحاكم النظامية بمفهومها الحديث. وإنما يكون حكمه مجرد رأي متّزن يساهم في حل أو إذابة سوء التفاهم بين المحبّين، والشعر العربي مليء بهذه المحاكمات التي تتّخذ شكلاً يوحي بالجدّية القانونية المعروفة لدينا، ونسوق مثلاً واحداً من هذه المخاصمات العاطفية للتدليل على أنها كانت محاكمات

(١) انظر: كتاب لافيت هوسا: الشعراء الترو بادور ومجالس الحب (النص الفرنسي).

(٢) انظر: الكتاب السابق، الصفحات ٣٨ وما بعدها.

(٣) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس. الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة، رحلة الأدب، محمد الشوباشي، وغيرها من المصادر الأندلسية الأدبية والنقدية.

عادية لا يضمّها مجلس محكمة ولا يوجد بها قضاةٌ مشرّعون، ولا قوانين يلتزم العشّاق بها سوى اجتهادات شخصية ليس لها أية صفة رسمية، تُقْبَل كما تُرفَضُ ولا سلطان سوى سلطان الحب. وها هو جميل بن معمر يصور هذه المحاكمات العاطفية ويحدد نوعيّة القاضي أو الحكم الذي سيبتُّ في الخصومة، يقول:

وقلتُ لها: اعتللتِ بغير ذنبٍ ... وشرُّ الناس ذو العلل البخيلُ (١)
فـفاتيني إلى حَكَمٍ من اهلي ... وأهلِكِ، لا يحيفُ ولا يَميلُ (٢)
فقالت: أتبغي حَكَماً من اهلي ؟؟ ... ولا يدري بنا الواشي المَحول (٣)
فولّينا الحكومة ذا سُجوفٍ ... أخا دنيا، له طرف كليل (٤)
فقلنا: ما قضيتَ به رضينا ... وأنت بما قضيتَ به كفيلُ
قضاؤكَ نافذ، فاحكُمْ علينا ... بما تهوى، ورأيُك لا يَفيلُ (٥)
وقلتُ له: قُتِلتُ بغير جُرْمٍ ... وغِبُّ الظلم مرتَعُه وبيلُ
فسَلْ هذي: متى تقضي ديوني ... وهل يقضيكَ ذو العِلَل المَطولُ ؟؟
فقالت: إنّ ذا كِذْبٌ وبُطْلٌ ... وشرٌّ، من خصومته، طويلُ
أأقتلُه ؟؟ ومالي من سلاح ... وما بي، لو أقاتلهُ، حَويلُ (٦)
ولم آخذ له مالاً، فَيُلْفَى ... له دَيْنٌ عليّ، كما يقول
وعند أميرنا حُكْمٌ وعدلٌ ... ورأيٌ، بعد ذلكُم، أصيلُ
فقال أميرنا: هاتوا شهوداً ... فقلتُ: شهيدنا المَلِكُ الجليلُ
فقال: يمينها، وبذاك أقضي ... وكلُّ قضائه حَسَنٌ جميلُ
فبتّتْ حَلْفةً، مالي لديها ... نقيرٌ، أدّعيه، ولا فتيلُ (٧)
فقلتُ لها وقد غُلب التعزّي: ... أما يُقْضَى لنا، يا بَثْنَ، سُول ؟؟
فقالت ثم زجّتْ حاجبيْها: ... أطِلْتَ، ولستَ في شيء، تُطيلُ
فلا يجدنّكَ الأعداءُ عندي، ... فتشكُلَني وإياكَ الشكُولُ.

---

(١) اعتللت: تجنيت علي وقدمت العلل بغير ذنب مني.

(٢) فاتيني إلى حكم: خاصميني إلى حكم يفتي بيننا، يحيف: يجور.

(٣) المحول: الذي يكيد بسعاياته.

(٤) ذا سجوف: ذا أستار، أي امرأة. أخا دنيا: قرابته دانية.

(٥) يفيل الرأي: يخطىء و يضعف.

(٦) الحويل: القدرة.

(٧) تبت: قطعت. النقير: الشيء الحقير.

ها نحن نرى في هذه القصيدة هيئة محكمة بأركانها المختلفة، من مدّع ومدّعىً عليه وقاضٍ أو حكم وشهود، ثم نصّ الخصومة أو موضوعها ثم البيّنة والقَسَم. ونظن أن هذه الأركان هي الأساس في كل خصومة تبتّ فيها المحكمة النظامية القانونية بمفهومها المعروف لدينا ولدى رجال القانون أو القضاء. ونلاحظ أن الحكَمَ الذي رفع المحبّان إليه قضيتهما كان أحد أقاربهما ومعه امرأة تشاركه الحُكْم، وتقضي كما يقضي، وعلى هذا فإنّ ما سقناه من شعر جميل بن معمر يؤكد أن محاكمات عاطفية كانت لدى الغزليين من الشعراء العرب وكانت المرأة تدلي بدلوها فيها، وهذا يشبه إلى حدٍّ بعيد ما ذكره لافيت هوسا في كتابه «الشعراء التروبادور ومجالس الحب»، عن أندريه لوشابيلان في كتابه «فن الحب» والذي ذكر فيه مجالس أو محاكم الحب والقوانين التي يخضع لها المحبّون والقاضيات اللواتي كنّ يطبّقن هذه القوانين ويلزمْن بها المحبّين. ولكن ورغم هذه الأدلّة أو بالأحرى الأخبار التي وردت عن محاكم الحب سواء عند العرب أو الأوروبيين فإنّ حقيقتها لا تعدو أن تكون شكلية أو أدبية تقليدية وكلامية لا شأن للقضاء فيها ولا شأن لها في القضاء، وما هي إلاّ مجالس ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعر الغَزِل والشعراء التروبادور الذين رسموا الخطوط العريضة لأصول اللياقة وأدب السلوك المتأثر بنور الفكر العربي والأخلاقيات العربية التي كوّنت حضارة نقلت العالم الغربي من ظلمات العصور الوسطى إلى نهضة فكرية واجتماعية تعتبر قاعدة النهضة الحديثة. ولعلّ كتاب لافيت هوسا هذا، والذي ناقشنا بعض ما جاء فيه في ضوء الوقائع والإثباتات الأدبية والتاريخية، لعله يشير إلى هذا النبع ولو من بعيد، وإن كان الأمر قد تخطّى مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين المؤكد.

جدة في ٣ شوال ١٤٠٠هـ

مريم البغدادي

"الشعراء التروبادور ومجالس الحب" أو "محاكم الحب"

تأليف: جاك لافيت هوسا

مقدمة المؤلف

من الجدير بالذكر — رغم تعدد أعمال العلماء النوابغ المختصين بعلوم القرون الوسطى — أن كل شيء يبدو واضحاً خلال هذه الفترة الطويلة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى الخامس عشر، إذ كانت تعتبر ولزمن طويل فترة غامضة.

و يبدو — دون شك — أن كل شيء قيل عن فن القرون الوسطى وخصوصاً عن تلك الأعمال الخاصة، بالإيمان والمتعلقة بالكاتدرائيات، والتي لا يعلم المرء ما إذا كان عليه أن يُعجب أكثر باندفاع عواطف النفس نحو الله حيث ترجمتها سطوة تلك المحاور الدائرية أو بمسألة التقنية التي حلّها البناؤون المجهولون والتي أدهشت المهندسين المعماريين المحدثين، قد أعطى الذرائع التي هيأها المرء لهذا العصر. وقد وجدت هذه الأعمال في باريس وشارتر وليون وأميان وريم أو بورج ذات الآثار لهذا الفن القوطي والتي تعتبر شواهد بليغة لا ترد، كما وجد زجاج متميّز بديع تتلاعب فيه الألوان التي كانت تضفي على هذه الكاتدرائيات إشراقاً يلائم مكانتها، ووجدت موسيقى هي موسيقى الأورج أو أغاني متغايرة(١) صنعت لتكون مسموعة، ومسموعة فقط في صحن هذه الكنائس العظيمة.

ولقد قيل كل ذلك أيضاً، وبشكل ربما نهائي، عن الفلسفة وأدب القرون الوسطى. فروائيو العالم أجمع قد أيّدوا — على كل حال — جوهر القول حول أصل معظم الأجناس الأدبية الكبيرة: الشعر الملحمي، لأغاني الفخر، وروائيات الطاولة المستديرة، والشعر الغنائي للشعراء التروبادور، والشعر الهزلي للأحداث المضحكة، — حيث أن المرء هنا — يستطيع الاعتماد على نصوص عديدة، مؤيدة ومتفقة.

وأما بالنسبة للمؤرخين، فليس هناك شيء يماثل ذلك، حيث أن العمل (هنا) أكثر مشقّة، وعلى الأقل فيما يتعلق بالحياة الخاصة وأحوال الوجود خلال تلك الفترة. فإذا أراد امرؤ — في الواقع — محاولة عمل أساس جديد ليومية فارس من القرن الثاني عشر، وإذا أراد إعادة الكتابة — بالتفصيل — عن حياة فتاةٍ أو فتى من نفس العصر كما حاول ليون جوتييه مع بعض النجاح، فإنه يضطر لجمع كل الأدلة

(١) لا تلفظ على وجه واحد.

الممكنة عن هذه المسألة من جديد. وفي هذه الحالة، فإن معظم هذه الأدلة — وخارج نطاق أعمال التصوير أو النحت التي يصعب شرحها أحياناً — مأخوذة من الأعمال الأدبية. وبالطبع، فليس هناك مشكلة بالنسبة لنا في أن نرفض شواهد الأدب تلك إطلاقاً. ولكننا مضطرون إلى التحقّق من أن مكانة النساء مثلاً ستوصف فيها بشكل مخالف تماماً ومتناقض غالباً، إذا قورن بالشكل الذي كُنّ يعاملن به في حكاية منظومة (الفابليو(١) **Fabliau**) أو في شعر التروبادور. وسنكوّن فكرة مختلفة عنها إذا استنرنا بنبع المعلومات الأخرى كرواية كريستيان دي تروا مثلاً، حيث تستطيع المرأة المعظّمةُ فيها أن تأمر فارسها الخادم (بما تشاء)، كما أن أحكام آباء الكنيسة القاسي — دون الكلام عن مجمع ماكون الشهير — كانت في الحقيقة مفتعلة، حيث قرر في النهاية — وبغالبية الأصوات الضعيفة — أن المرأة تملك روحاً كما يملك الرجل تماماً.

وأما فيما يتعلق بمسألة المرأة — على وجه الخصوص — وبمسألة الحب، فإن التناقض كبير أيضاً بين الحقيقة التاريخية وبين النصوص الأدبية، ومن ناحية أخرى، فإن من الثابت — في الواقع — أن المرأة لم يكن لها اعتبار داخل المجتمع الإقطاعي، وكذلك لدى السادة ذوي السلطان، الذين كانوا يهملونها ولا يعتبرونها إلا كأداة ترفيه يستخدمها المرء حينما يكون في حاجة إليها، وخصوصاً ليؤكد ضعتها، وبالتالي يستطيع تركها إلى سواها. ويعمل الأدب العفيف على عكس ذلك، حيث يطري المرأة ويعظمها ويغنّي لمن يهبها المرء نبوغه وحياته. كما يجعلها موضع مبالغة عند الشاعر أو الروائي، إلاّ أنه من الصعب التفكير بأن خضوع الرجل هذا للمرأة قد لاقى بعض القبول، وأن هذه الأعمال الأدبية قد لاقت بعض النجاح إن لم تكن قد وجدت أي أساسٍ حقيقي لمثل هذه العواطف. وإن فكّر امرؤ بطبيعة مجالس الحب، فإن من الصعب أن يجعل وجودها موضع الشك، كما أن مجالس النساء هذه لو كانت مشروعة فيما يتعلق بالمسائل العاطفية، فإنها لم تكن سوى سبيل للترفيه، ومن العسير الاعتماد على القول بأن هؤلاء النساء لم يلعبن أي دور في حياتهن الخاصة، ولم يكن لهن اعتبار في عيون سيدهن أو رئيسهن.

وعلى هذا فإنه يجب تفسير، أو محاولة تفسير هذه التناقضات، إذ كيف يكون ذلك في عصر كان القانون المدني فيه قد جعل للنساء مكانة أدنى وجعلهن مرؤوسات؟؟ وهل استطاع امرؤ أن يجعل في الأدب ما يدافع به عن هذه المرأة التي أصبحت وثناً وأصبح الفارس أو الشاعر عابداً له؟؟ كيف يكون هذا داخل مجتمع كانت روابط العائلة فيه جدّ قوية وحقوق الزوج مسلّماً بها؟؟ وهل استطاع امرؤ أن يترك النساء يجتمعن لمناقشة أمور الغزل (ملاطفة النساء) وإضفاء قدسيّة رسمية على ما يخُص زنى الشخص المتزوج؟؟ كيف يكون هذا، خاصة وأن الكنيسة مسيطرة في العصر الوسيط في بلد كانت

---

(١) حكاية شعرية ظهرت في القرن الثاني عشر الميلادي ودامت ما يقرب من قرنين في فرنسا، وكانت تحكى للتسلية وأحياناً للنقد الإجتماعي والخلقي لدى الطبقة الوسطى في المجتمع.

الديانة النصرانية فيه راسخة بعمق وإخلاص؟؟ وهل تترك مجالس الحب هذه تنشأ وتتطور؟؟ تلك هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عليها. وسنرى في البداية، الظروف الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية التي تسمح بتحويل تلك القاعدة الخاصة بالمرأة وتساعد على ميلاد وتطور هذا الغزل.

ثم سندرس هذه القاعدة الخاصة بالمرأة داخل النظام الغريب لمجالس الحب. وسنعطي حول هذه المسألة، تاريخاً نعتقد أنه سيكتمل ضمن الموضوع الجوهري، والذي سوف يسمح لنا، وبكل موضوعية، بتقييم الأدلة والبراهين المقدمة —على التوالي— من المتحزبين لوجود مجالس الحب أو خصومها.

وسنحلل بالتفصيل —علاوة على ذلك وإلى جانب تلك العادة— العمل الأدبي الذي هو في اعتقادنا المستند الجوهري الوحيد (لهذا الموضوع): إنه الحديث عن **Dearte amandi** «فن الحب» لأندريه لوشابيلان **Andre le chapelain** ويكوّن هذا النص —في الواقع— القانون الأساسي، أو أنه —إذا أردنا— يعبّر عن التعليم المسيحي الخاص بالحب العفيف **amour courtois**. وهاهو السرد العقائدي لمذهب الحب، الذي سنجد تطبيقات له ضمن: أحكام الحب النسائية، وفي شعر التروبادور، وأخيراً في روايات كريستيان دي تروا **Chretien de Troyes** ويسمح لنا هذا التحليل —عن قرب— باختيار الشخصيات الرئيسية للحب العفيف، ومن ثم يبقى لنا —حتى يتم الأمر— دراسة ما إذا كان هناك مكان للتأثير الأخلاقي أو الإجتماعي سواء في العصر ذاته أو في العصور التالية.

ولتأكيد خطّة دراستنا، علينا أن نبيّن الحدود والإطار الذي حدّدناه لأنفسنا. إذ أننا بحاجة ماسة إلى القول بأننا سوف لا نبحث، في هذه الدراسة، شكل الحب لدى كل طبقات المجتمع. ذلك لأن الحب الذي سيكون موضع البحث هنا لن يُطبّق على القرويّين: فالعبيد والدميمون لم يكونوا يستطيعون —كما يظن المرء— معرفة أو تقييم الحب سوى أنه مادّة دنيئة. وهو بالنسبة للبورجوازيين في القرى والصنّاع والتجّار ليس أكثر من أن ينشغلوا بالحصول على المال في وسطهم أو متجرهم: ولا يلائم هؤلاء سوى حب الدعابة الزائد في الحكايات المنظومة **Fabliaux** فقط. فالانشغال بالحب يقتضي وجود الوقت والفراغ، كما علينا ألاّ نهتم —علاوة على ذلك— بحياته المادية: وإنما بحالة النبلاء والسيدات والفرسان بدقة، وكذلك حالة الشعراء التروڤير والتروبادور، الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الأمير أو سيدته، والقادرين على ملء وظيفتهم الرئيسية كشعراء للحب.

ومن جهة أخرى، فإن هذا الحب الأرستقراطي عفيف **Courtois** بمعناه الإشتقاقي لن نجده على امتداد الإقطاعية. ولن نضبط خلال القرون الأربعة أو الخمسة التي تتضمنها العصور الوسطى إلاّ أكبر الأعمال، أعمال القرن الثاني عشر أو بالأحرى النصف الثاني من القرن الثاني عشر فقط، ذلك لأنه يمثّل بالنسبة لنا قمّة العذرية، إذ لم يكن النقاء الأخلاقي والسلوك الطيب قبل سنة ١١٥٠م، في

الواقع، موضع احترام بعد. وقد انحطت قيمة فروسية الحب – كأية فروسية باختصار– وأصبحت أضحوكة بهذا الشكل التائه للفروسية المتسكعة والتي نجد صورتها الهزلية في قصص دونكيشوت. (١)

ولقد كان هذا في عهد لو يس السابع المدعو بالفتى تقريباً، والذي سنحدّد دراستنا من عهده. ولن يكون من غير المفيد –دون شك– أن نذكّر هنا أن لو يس السابع قد تزوج من ألْيُنور **Eleonore** أو إليونور **Alienor** ، الإبنة الوحيدة لدوق أكيتانيا، أكبر أمراء وسط فرنسا. والتي جلبت معها –في نفس الوقت أيضاً– إلى عرش فرنسا قبل أن تنقلها إلى انجلترا، ثروتها وإقليماً واسعاً. كما حملت إلى بلاط فرنسا و بعدها إلى بلاط انجلترا تذوّقها للشعر المتطور في الوسط المتصل بالشعراء الترو بادور، وكان للملكة إلْيونور –من جهة أخرى– ابنتان إحداهما ماري التي تزوجت بالتالي من كونت شامبانْي **Champagne** القوي. فها هي ملكة فرنسا وكونتيسة شامبانْي، اسمان مشهوران سنلتقي بهما خلال الحديث عن الحب وأحكامه والتي سنعود إليها ثانية.



(١) للأديب الاسباني سرڤانتس، حيث سخر من أدب الفروسية ونقله من المثالية إلى الواقع بما فيه من مرارة وألم وحلل النفسية البشرية تحليلاً دقيقاً.

الفصل الأول
مكانة النساء في العصر الوسيط

أمر واقع أن مكانة المرأة، أو على الأقل المرأة النبيلة، قد تحسنت ظاهراً في نهاية القرن الثاني عشر. وهذا التحسن ملحوظ في ظهور وتطور العذرية، وتشرحه كل الظروف مجتمعةً، الاقتصادية منها والاجتماعية التي حوّلت شكل الفروسية تحويلاً تاماً. فكلما تغيّر —في الواقع— نوع حياة الرجال، حيث يكون الإنشغال بالحروب أقل، كلما تركهم هذا في فراغ داخل قصورهم أكثر فأكثر، وتغيّرت حياة النساء أيضاً. وهذا التغيير الذي يلاحظه المرء مميّزاً —بعد مارك بلوش— في فترتين مختلفتين من العصر الوسيط: هما العصر الأول للإقطاع حتى القرن الحادي عشر بأكمله، والعصر الثاني للإقطاع حتى نهاية القرن الثاني عشر.

١- العصر الإقطاعي الأول

لقد كان القصر —حيث يعيش الأمير حسب الأصول— «يتألف —حتى القرن الحادي عشر وكما يقول ڤيوليه لودوك— من سور من السياج محاط بالخنادق وجدار في الأرض، وترتفع داخل السور ربوة صناعية أو تلْعة شيّد فوقها بيت مربع من الخشب مكوّن من عدة أدوار، وقد أصبح فيما بعد برجاً. ولحماية هذا البرج الأوّلي ضد القذائف المحرقة، كان المرء يغرس سطح البيت أو على الجدران الخارجية جلود الدواب المسلوخة حديثاً. وكان سياج الحماية سابق الذكر مصمماً سواء من أشجار شائكة أو من حِزَم حطب فروع الأشجار المتشابكة بأبعاد معينة».

ومن الواضح أن الحياة العائلية لا تساوي شيئاً داخل هذا البناء المختصر القائم وحده فقط كمعقل للدفاع بواسطة أمراء انقطعت صلتهم بالجيران، والذين كانوا يستطيعون دائماً إرهاب الآخرين بمعركة ثأر من جانبهم، ولا داعي للقول بأنه لم يكن هناك مكان ما للنساء في هذا البيت الصغير.

لم يكن الأمير يعيش إلا للحرب التي لم تكن واجباً موسمياً فقط، بل كانت سبباً للعيش، وهو يحبها —أولاً ودون شك— لأنها وظيفة أكثر كمالاً لإظهار قوته وشجاعته، ثم ليصطاد بها السأم الناتج عن الكسل الذي يسير على منوال واحد في حياة القصر، ثم أن الحرب مصدر للكسب: بالنسبة للأمير كما

هي لأصحاب الإقطاعات المقربين لديه، ولقد كان الإستلاب طريقة منتظمة للثراء، كما هي الحال بالنسبة للفدية التي كانت تجبى دائماً من غريم يكون باستطاعته شراء حياته بدنانير رنّانة. ونتيجة للفراغ الناتج عن الحاجة للقتال، كان الفارس يعيش على الصيد: لأنه كان بديلاً عن الحرب أيضاً، وأحسن علاج، على كل حال، لحفظ الهيئة، لكنه كان أيضاً مصدراً لدخلٍ مهم، ذلك لأن محصول الصيد يضع على مائدة الأغنياء مكسباً من لحم جزارة هي أفضل من ماشية غير معتنى بها جيداً وذات نتاج قليل وسيء. وهذا المال في النهاية يجعل الأمراء هكذا، سواء بالنسبة للفائدة التي يجدونها في الحرب (أو الصيد) أو لاستهلاك قوتهم البدنية أو للحاجة إلى اكتساب بعض المجد. ولكن إذا كان هذا هو أمر الحرب أو الصيد أو المال، فإن الفارس كان في غياب غالباً، وبرفقته أولاده الذين تسمح سنّهم بمرافقته. ويبقى في القصر بعد ذلك زوجة الأمير —مع كثرة الخدم— وأقاربها والأولاد الذين مازالوا صغاراً. وهكذا كانت سيدة القصر تحمل عبْء كل هذا العالم إلى جانب الإدارة المادية الداخلية.

فهل كانت تجني على الأقل بعض الفائدة الأخلاقية أو بعض الاعتبار؟؟ لا، طبعاً. فالزواج الإقطاعي قبل كل شيء عمل منظّم بين أميرين، تراعى فيه المنفعة المتبادلة والأراضي أكثر من اعتبار مشيئة الأطفال الذين اتحدوا بالزواج. وكان للأمير أو السيد —في حالة اتخاذه فتاةً زوجةً له— كل الحق في جسدها: فعبارة «الواجب الزوجي» هنا ليست كلمة لا طائل لها، كما أن الزوج ليس في حاجة لبذل أي مجهود لنيل مراده أو حقٍ من حقوقٍ هي ملك له. وله الحق كذلك في التأديب المادّي: «إذ يستطيع كل زوج ضرب زوجته إذا رفضت طاعته في تنفيذ أوامره، أو عندما تلعنه أو عندما تكذّبه بشرط أن يكون ذلك باعتدال ولا يؤدّي بها —بالتالي— إلى الموت». وفي حالة الزنا —أخيراً— فإن العادة كانت قاسية بالنسبة للمرأة: فالمذنبة تسجن داخل دير حتى نهاية حياتها، وإذا فوجئت في حالة جرم مكشوف، يستطيع الزوج أخذ ولده منها، ويعد ذلك مساعداً لقتلها بجريمة الخيانة. أما الزوج المذنب فإنه —على عكس ذلك— كان يتمتع أكثر بالعفو.

ولقد كان ذلك، في الواقع، قاسياً جداً بالنسبة للمرأة. ويستطيع المرء القول بأن العصور الوسطى كانت تنفر من النساء، وربما كان ذلك تحت تأثير الديانة المسيحية، ذلك لأن آباء الكنيسة لم يكونوا عطوفين عليها: «أعظم وباءٍ، باب جهنم، سلاح الشيطان، حارس متقدم إلى النار، دودة إبليس، سهم الشيطان» هذه هي النعوت التي كان يطلقها عليها القديس جون كريزوستوم والقديس أنطونان، والقديس جون صاحب دمشق، والقديس جيروم. وجاء بعد هؤلاء كل الوعّاظ والأخلاقيين ليكملوا هذه التقاليد. فإذا كان العلماء أنفسهم يُبْدون قساةً على النساء، فكيف أحسّ فرسان القرن العاشر ببعض الحنان تجاه الجنس الضعيف؟؟. إنه لا شيء أكثر شراسة من فارس في عصر البطولة، حديديّ اللباس، ونعني رجلاً يرتدي الحديد. فقد يحلُم بأبطال أغاني المفاخر، دون البحث عن راؤول

دي كامبري المزعج عديم الإنسانية، الذي عرّض كل شيء للنار وسفك الدم دون أي اعتبار لأمور الدين، بل على المرء أن يبحث عن أبطال «أنشودة رولان» فقط: إذ ليس هناك سوى ضربة سيف قوية، ورؤوس مقطوعة ومحاربين مرعبين. وعلى امتداد هذه العصور الطويلة، لم تلعب المرأة أي دور إطلاقاً: فالمرء يحارب من أجل ملكه أو من أجل ربّه أو من أجل وطنه أو دينه. ولا يبدو في أية لحظة وجه أنثوي مال على فارس مجروح أو ميت، كما لا تبدو في أية لحظةٍ صورة زوجة أو مخطوبة لإنعاش المرء في اللحظات العصيبة. إن عصر البطولة هو الفترة الأولى للفروسية، حيث لا يُعْتَدّ سوى بالحرب، وأغنيات المفاخر هذه والتي لم تلعب المرأة أو الحب فيها أي دور. ولذا، كيف حصل هذا التحول؟؟ كيف رقّت ولطفت الأخلاق بدرجةٍ أعطت المرأة هذا الدور السامي الذي جعلها في النهاية تلعبه في مجتمع المؤانسة خلال العصر الإقطاعي الثاني؟؟

٢- العصر الإقطاعي الثاني

إن السبب الأصلي لهذا التغيّر الأخلاقي، هو التحوّل الهام الذي جعلته الكنيسة يلحق أضراراً بالفروسية تدريجياً.

ومن غير المستطاع منعُ الحروب منعاً باتاً، وهي أهم سبب للحياة بلباس الحديد. ولقد حاولت الكنيسة –على الأقل– تهذيبها، وتنصير(١) هؤلاء البارونات المحاربين، إذ أن البؤس والجوع المتتابعين في الحروب لم يبتعدا (عن الناس)، وقد نجحت الكنيسة في إسماعهم السبب: إنها –بعد الاستفادة من تخويف الناس من النار والشيطان– أنذرتهم بسلاح الحرمان الكنسي الرهيب. ولا يطول بنا الانتظار، من بعد حياة صراع ونهب، حتى يأتي الفرسان التائبون للتفكير (عن أخطائهم) في أيامهم الماضية داخل أحد الأديرة، حيث ينتهي بهم إلى توصيلهم إلى مراعاة الهدنة الالـٰهية(٢): خلال عيد زمان المجيء(٣) والصوم الأربعيني(٤) في شهر مايو، والأوقات الأربعة، وأيام العيد، وكل أسبوع منذ ليلة الاربعاء إلى صباح الاثنين إذ كان ممنوعاً خلالها أن يتقاتل الناس تحت حكم كون المرء معاقباً بالحرمان خلال احتفال كان يقام فيه موكب العقاب، وذلك للإرهاب الشديد. ولم تعتقد الكنيسة أن طاقة الإنسان تتطلب أكثر، ولكن ذلك كان تغييراً جدياً في حياة الأمير الذي كان يجد نفسه هكذا في قصره كما كان الحال في الماضي غالباً.

---

(١) أي يتشرّبون الروح النصرانية.

(٢) هدنة كان الملوك المسيحيون ملتزمين بها.

(٣) وهو قبل عيد الميلاد المسيحي.

(٤) يكون فيه سلسلة مواعظ يتلقاها الناس من رجال الدين والكهنة.

ولقد قدمت الكنيسة إلى المجتمع خدمة ثانية كبيرة وجّهت فيها نزوة هؤلاء المحاربين نحو الخير ضمن حدود الممكن. ومع مباركة السلاح الذي لم يكن من المستطاع نزعه من أيدي أصحاب الحسب، حظي الاكليرك —على الأقل— بالقَسَم بأن هذه الأسلحة لن تكون موجّهة إلاّ ضد أعداء الكنيسة، والتي أصبحت فيما بعد مسخّرة لخدمة الضعيفات والنساء.

ولقد كان الاحتفال الديني للإصلاح الذي يُبيّن منفعة الشاب من خلال الفروسية وكأنه السرّ الثامن، عماد الرجل في الحرب. وكان الناس خلال ذلك الاحتفال يذكّرونه بواجباته المستقبلية: «إذ ينبغي على كل فارس أن يكون لديه العدل والإخلاص معاً، كما يجب عليه أن يحمي الفقراء من الناس حتى لا يستطيع الأغنياء ظلمهم، و يساند الضعفاء حتى لا يستطيع الأقو ياء فضحهم. كما عليه أن يبتعد عن كل مكان تكمن فيه الخيانة أو الظلم. وبما أن السيدات والآنسات في حاجة إليه، يجب عليه مساعدتهن بكل قوته، إذا أراد كسب التقر يظ والثواب، إذ أن من واجبه احترام النساء وحمل عبْء كبير لحماية حقوقهن. كما يجب عليه أن يصوم كل يوم جمعة وأن يصغي إلى القدّاس كل يوم و يقدّم هناك القربان إذا لزم الأمر. ويجب على الفرسان التمسك بالإيمان حفظاً لحرمته أمام العالم كله، خاصة أمام زملائهم، كما يجب عليهم أن يتحابّوا و يَشْرُفوا و يساعدوا بعضهم بعضاً في كل مناسبة». ولقد كان الفرسان قبل حَلْف اليمين، والسيدات كذلك يتقار بون خلال احتفال يقام في جمعية كانوا يُقْبَلون فيها (أعضاء)، حاملين مجموعة آلات الوقاية الحر بية التي كان لهم الحق في ارتدائها. وغالباً ما كانت سيدة تساعد الفارس في وضع الزرد(١)، وسيدة تقلّده السيف، وأخرى تُنعِله مهماز الذهب، وهكذا بدأت النساء يحظين ببعض الإعتبار. إن الدور الذي اسْتُدْعين لِمَلْئِهِ خلال حفل الإصلاح، واليمين الذي يلتزم الفارس بها لحمايتهن والدفاع عنهن، فتح باباً لنظام الفروسية كعامل جديد. وهو العامل الذي بدأ يتطور تدريجياً وثانو ياً أولاً ثم وصل شيئاً فشيئاً إلى الخط الأول، كما ساعدت حماية الفارس هذه للسيدات —ربما أكثر من أي شيء آخر— على إعادة الفروسية أكثر شعبية. وهكذا ساهمت الكنيسة —دون أن تروم ذلك— في فرض احترام المرأة، حينما ولد ذلك الشعور الذي اتخذ فيما بعد اسم «أدب المجاملة **Courtoisie** ».

ومن أجل هذه النبالة الطامعة بالأعمال الكبيرة، والمجد والمغامرات، خلقت فرنسا بعد مدة وجيزة ساحة معركة لا تفي بالحاجة. كما عرضتها الكنيسة على الأجنبي من غير المؤمنين لقطعها نصفين كما عرضت قبر المسيح للتسليم. فخلق هذا كله الحملات الشديدة لإصلاح الأخلاق والتي انبثق منها نتائج أحدثت تحو يلاً تاماً في نوع حياة الأمراء. لأنه إذا لم يفز المرء بالنتيجة المأمولة والتي هي حر ية الأرض

(١) الزرد: لباس كان يرتديه المحار بون في القرون الوسطى.

المقدسة، فإن هذا الصدام بين الشرق والغرب له —على الأقل— نتائج مهمة من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية. وهذا ما يحدث كل مرة تجتمع فيها حضارتان معاً. وبما أن الشرق أغنى بكثير كما أنه أكثر تحضراً، فقد كان له التأثير الكبير في الصليبيّين. إن هذه الأمور الخاصة بمواجهة بذخ لم يستطيعوا تصوّره حتى ذلك الوقت، قد نقّت (الأخلاق) وأخذت بالذوق الرفيع بشكل سريع. ومن جهة أخرى، فإنهم —حتى أثناء حرب مقدسة— لم يستهينوا في جلب الثروة والغنائم معهم، وغيّروا كذلك من عاداتهم التي دخلت ذات يوم إلى فرنسا. كان هذا منذ عصر الإصلاح الأخلاقي الذي أرّخ التطور التجاري لحوض البحر الأبيض المتوسط، وخاصة الموانىء الإيطالية. ولقد انتعشت في هذا العصر أسواق شامبانْي حيث كان المرء يجد كل منتجات الشرق: سجاجيد، مرايا، توابل، منسوجات فاخرة، قطائف دمشقية —اسم البلد الذي تصنع فيه— مخمل... الخ.

وفي هذا العصر أيضاً كان التحوّل في البيت الأميري. إذ كان الرجال الأغنياء —حسب الأسلوب القديم والبناء المصغّر من الخشب— يقيمون مكانه القصور الحجرية الجميلة، والتي كان منها النماذج الأكثر كمالاً، وهي تلك التي شيّدت في القرن الثالث عشر. وسوف لا نصفها: فهي خنادق وتحصينات، جسور ترتفع وتنحدر، أبراج مسنّنة مع مرامٍ ومسايل (للمياه)، برج قصر محصّن بقوة، كل ذلك أصبح مألوفاً بالنسبة للعالم أجمع. وَلْنُشِرْ فقط إلى أن مسألة امتلاك هذا القصر الإقطاعي المهم هو برهان على أن المالك —على الأقل— لا يهمّه الإنفاق. ولعل ما هو داخل القصر يؤكد ذلك الشعور. ولما أن أصبح الأمير الآن يقلّل من الحروب، صار يعيش في الداخل غالباً، وتغير نمط حياته. إذ يحاول الأمير —وهو مبهور بأبّهة القسطنطينيّة— أن يهيء الرفاهية الممكنة داخل قصره: أبهاء واسعة بجدران مغطاةً بالطنافس والتصوير، بلاط من الفسيفساء، وأثاث مختار بعناية، ومواقد رحبة من الرخام، ووجبات من طعامٍ معتنىً به جيداً. كما أن العادات قد تأثرت بهذا أيضاً:

فالاستقبالات والزيارات المتبادلة، والحلل البيضاء القشيبة(١) في الاجتماعات اللطيفة حيث تلعب النساء دورهن. ثم يكون الغناء والقصة واللهو بعد تناول الطعام. وباختصار، فإن حياة القصر قد تغيرت كلياً، كما يلاحظ ذلك المؤرخ هنري مارتن.

« إن حشد الشباب من الجنسين داخل القصور، وحول الإقطاعيين والسيدات ذوات الحسب الرفيع، قد لطّف شيئاً فشيئاً من خشونة الطباع، كما أكسب العلاقات الاجتماعية الكياسة والرقة، ذلك لأن الفتيات الصغيرات كن ينشأن على أيدي سيدات كبيرات، كما كان الفتيان في خدمة الأمراء.

---

(١) حلّة ذات حاشية من أرجوان كان يلبسها أبناء العائلات الشريفة عند الرومان.

هناك كلمة مميزة تتعلق بأدب المجاملة **Courtoisie** قد حددت مجموعة المزايا التي ولدت من هذه التجارة المتواترة بين الجنسين والتي أنشأت ونظمت صورة الفارس الكامل، وتلك كانت —في الحقيقة— ضمن تقاليد الشرف في القصور، وهناك مسرح الألعاب الحربية التي يتمرن فيها الحُجّاب والفتيات تحت نظر السيدات، والتي تطورت من خلالها تلك الكياسة والأدب، والأناقة، والسخاء، وكانت بمجموعها تكوّن الفارس المجامِل **Courtois** . إن وجود النساء، والمنافسة التي كنّ يثرنها قد رسما صورة جديدة غير معروفة للأعياد والمبارزة بين الفرسان، والأعياد العسكرية التي كانت تحتل مكاناً مرموقاً في تاريخ العصور الوسطى. ولقد كان التصفيق وابتسامات المشاهدات الحسناوات أحسن ثواب لأحسن عمل، وكان المرء يقاتل من أجل الاغتباط بألوانهن وكسب حبهن. بمقدار ما يقاتل من أجل المجد. ثم ألَسْنَ هن —من جهة أخرى— الحَكَم لهذا المجد؟؟ وكان المنتصر يتسلم من يد السيدة ثمن مبارزته الفرسان في احتفال».

ولقد كانت كل المناسبات —أعياد الفروسية، والأعياد العسكرية الخاصة بمبارزة الفرسان، والاجتماعات في القصور— جيدة بالنسبة للفارس لاستعراض نبله وليفتن البصر بتسليات مملّة. ونحن هنا بعيدون عن التقاليد الاقتصادية للقرنيْن العاشر والحادي عشر، حيث كان النبلاء —حسب تقليد جرماني دون شك— يحبّون اكتناز المال، وتكديس النقود الذهبية أو سبائك الذهب في صناديقهم وتكديس الأشياء الثمينة من الأثاث والأنسجة الفاخرة. والفارس الجدير بهذا الإسم الممنوح دون حساب الآن، يجعل شرفه ومجده موضع بذخ في سلاحه ولباسه وخيله وفي عدد خدمه. وكلما أنفق بجنون وعلانية، كلما قويت شهرته كأمير عظيم، وذاع صيته. ففي وسط فرنسا على وجه الخصوص، أصبح من حسن الذوق أن يتلف ماله بزهو وبهرجة وبإسراف غير نافع غالباً، وغالباً ما يذكر المرء حالة الأمراء الأقل ثراء والذين دُمّروا تماماً بدافع الرغبة في تقليد الأكثر مقدرة منهم.

وكثيراً ما يسوق المرء كمثلٍ على هذا، المشهد الذي حدث في البلاط الكبير في بوكير **Beaucaire** ، وذلك في عام ١١٧٤م، حيث كان الملك هنري الثاني ملك انجلترا —دوق نورماندي القديم، هنري بلانتاجنيه— في مناسبة الصلح بين دوق ناربون رايموند وألفونس ملك أراجون، إذ أن «رايموند داجو**Raymond d'Agout** كان قد استلم في ذلك الوقت مئة ألف دينار من الذهب من إقطاعته، وقد وزعها فوراً بين مئة فارس، كما أن برتراند رامبو**Bertrand Rambaut**أمر بحراثة حقل باثني عشر زوجاً من العجول وزرع ثلاثمائة ألف دينار لينبش عنها القرويون، وجيوم جرو دي مارتل **guillaume gros** الذي كان معه ثلاثمائة فارس قد جعل الناس يتناولون عشاءهم على ضوء الشمعدانات، كما أرسلت كونتيسة أورْجل تاجاً قدّر ثمنه بأربعين ألف سول(١) لتتويج ملكٍ للمشعوذين **jongleurs** ، كما أقام رامنو دي ڤينو ناراً ليلهو مع ثلاثين حصاناً ثميناً».

(١) عملة نقدية قديمة.

ولقد استفادت النساء كذلك من هذا الإسراف الأحمق الذي وصل إلى حد غير معقول. أولاً من وجهة النظر المادية، ذلك لأنّ على صاحبة القصر المستقبلة أن تعمل على مجد الأمير وحفظ طبقته. ولقد كان الرداء الذي يلبس فوق الدرع، والقميص البسيط من القرن سابق الذكر يلبسان على الثياب الطويلة المصنوعة من الجوخ الفاتن الآتي من الشرق، المطرّز والمذهب والمزيّن بالأوسمة، وكان الذهب والمال والجواهر والأحجار الكريمة تغطي الثياب والخيل، وكانوا يرتدون أحزمة من الذهب الضخم، والقبعات، وكلها متلألئة من نفس المعدن. كما كانوا يصففون شعورهم بطريقة معقدة فوق أمشاط من العاج بدلاً من الشعر الذي كان يترك عادة مسترسلاً فوق الأكتاف. وكان بيت القصيد من هذا هو أن تعمل صاحبة القصر على تمييز نفسها عن غيرها من السيدات، وكان الثراء الفاحش بالنسبة لها ولزوجها هو الطريقة المضمونة لهذا التميز.

و يطابق هذا التحسين لحالة المرأة المادية تحسيناً آخر من حيث الاعتبار الاجتماعي. إذ أنها تساهم أكثر فأكثر في إدارة الإقطاع، وهذا التغيير نفسه — كما يقول جيزوت— كان سبباً جوهرياً للحضارة: «فعندما كان مالك الإقطاع يخرج من قصره، تبقى زوجته فيه، وفي موقف مخالف تماماً لذلك الموقف الذي كانت تحظى به النساء دائماً وحتى ذلك الوقت. حيث ظلت السيدة صاحبة القصر، تمثّل زوجها وتأخذ على عاتقها، في غيابه، أمور الدفاع وشرف رعاية الإقطاع. وتلك المكانة السامية والمطلقة تقريباً، والتي هي في صلب الحياة المنزلية أيضاً —قد أعطت للسيدات في العصر الإقطاعي قيمة وشجاعة وفضيلة، وبهاء لم يستطعن إظهاره قبل ذلك، وتلك المكانة —دون أدنى شك— قد ساهمت و بقوة في التطور الأخلاقي والتقدم العام في مركزهن».

وفي النهاية، فإن آخر مرحلة في ذلك التحسين قد تحقق عندما نالت رفعة المنزلة في الإطار الأخلاقي والثقافي، إذ أنه قد «أرجىء للقرن الثاني عشر خلقُ نموذج للسيدة العظيمة الأديبة التي تتخذ لنفسها صالوناً». ومن المعروف أن ذلك لا يعني —في ذلك العصر ولسبب ما— شيئاً أكاديمياً أو صالون أدب بالمفهوم الحديث للكلمة.

ولكن هذا كان تقدماً هائلاً نرى فيه المرأة تعطي المثل وترسي نظم التقليد الأخلاقية الحسنة واللطف. وها هي كيفية تجاوُزِ درجة التطور هذا حسبما يقول فارال:

«إن الإزدهار المادي الذي صاحب ثقافة حديثة، قد طوّر في بلاط القصور —منذ نهاية القرن الحادي عشر— نموذجاً للحياة الاجتماعية حيث الأبهة، والأعياد ولهو الروح مما دعا إلى مشاركة النساء بطبيعة الحال. وقد جاء هذا النموذج، كما يبدو، من وسط فرنسا: إذ انتشر في الشمال على إثر الغزو العسكري المجازف والجماعي وإثر الارتباطات الزوجية. ولقد نالت المرأة —داخل المجتمع، مكانة

سمت شيئاً فشيئاً وأصبحت مصانة من حسن إلى أحسن. ولقد خطر للرجل —بدافع فطرته— أن المرأة لن تستطيع نيل مكاسب أكثر بحكم القوة فقط، بل كان عليه أن ينيلها إياها بفضله، جاعلاً لها شأناً، كما عليه الرضى وممارسة الاحترام الذي فتح له الطرق إلى القلب. وعن طريق وهم أصبح نموذجاً طوال أكثر من قرن من الزمان، قدّم المرأة التي اختارها كمالكةٍ إقطاعية ادّعى أنها جنت الثمار بتكفّله إياها وبالوفاء وبهمّته في خدمة الرجل الإقطاعي. هكذا ولد المبدأ، وهكذا ولد الشعور الذي سنسمّيه «الحب العفيف»: علم روحاني جديد، وتعظيم للروح التي هي —من أجل حب المرأة— لا تحلم إلا بالوصول إلى كمال الفضيلة الشريفة، وإلى نقاء القلب اللذين من خلالهما يستحق المحبّ الثواب، وها هي المرأة تجتاز الطريق —من نفس المنطلق— إلى رتبة قاضٍ.(١)

لقد انطلق هذا التحول —في الواقع— من وسط فرنسا، وبالضبط، من بلاط أمراء بواتييه، وناربون، وتولوز... الخ. ومن هنا استحسنت النساء الذكيات والمثقفات أن تحتفظ بالشعراء التروبادور الذين أصبحن هن حاميات لهم.

وقد اكتُسب هذا الدور نهائياً عندما عملت صاحبات الإقطاعيات هذه على مشاركة الرجال، الذين يعيشون حولهن، ذوقهم. إذ لم يكن النبلاء —بلا شك— أميّين تماماً— على الأقل في القرن الثاني عشر، بل كانوا يحبون على أية حال، سماع روايات المفاخر المتعلقة بالأبطال المعجبين هم بهم. وأصبحوا أكثر صفاء لاتصالهم بالحضارة الجديدة، كما أصبحوا أكثر رقة بصحبة السيدات المتكررة، ولقد قدّروا فيما بعد أغاني الحب المؤثرة أكثر فأكثر. وفي النهاية، فإن كثيراً من بينهم أصبحوا قادرين بدورهم على تأليفها وضحّوا —على نفس النمط— في بحثهم عن إرضاء السيدات. ولقد ولد الشعر الغنائي ومرّ تطوره في وسط فرنسا والشمال والشرق، عندما غدت النساء الشهيرات يكوّنَّ دوراً مشابهة(٢): ولن يقال أبداً أكثر مما يجب —من وجهة النظر هذه— في زواج إليونورا داكيتانيا والتي صارت ملكة فرنسا، وفي زواج ابنتها ماري التي أصبحت كونتيسة مقاطعة شامبانْي، كما سنرى ذلك غالباً فيما بعد.

وعلى المرء —في الواقع— أن يعتبر الأخيرة هذه منطلقاً للإلهام لمعظم أعمال كريستيان دي‌تروا الذي كان في خدمتها. وفي حين كانت القسوة الشرسة لأغاني الفخر القديمة لا تقدّم في الغالب أكثر من بقية أغنية حرب، أو غدر أو إصلاح، كان كريستيان يستوحي القصص الخرافية السلتيكية أو السلتيّة(٣)، حيث يحتل الحب مكانة عظيمة. ويفقد الفارس في هذه القصص خشونته، كما تحتل

(١) أصبحت تعمل في القضاء كما سيمر معنا فيما بعد.

(٢) صالونات أدبية.

(٣) السلتيك **Celtique** نسبة إلى سكان غرب أوروبا الأقدمين (ما بين القرن الخامس إلى الثالث قبل الميلاد) والسِلْت بالتحديد هم من سكان مقاطعة بريتاني الفرنسية.

اللباقة مكانة العشق الجامح العنيف. إن الإريك واللانسلو(١) التي تعاقبت على رولان وأوليڤييه قد أدخلت إلى امبراطورية الحب حباً رقيقاً صافياً. وبها بدأت أعمال الشجاعة الحمقاء، حيث كان حب المرأة هو المبدأ والمكافأة.

وفي النهاية، فإن تتويج ارتقاء المرأة هذا قد حصل عندما وجّه الشعراء التروبادور والفرسان حديثَهم إلى هؤلاء السيدات اللواتي أصبحن خبيرات بفن الحب لقَصْر مناقشاتهن على مسائل اللباقة: حيث يسجّل نظام الملاطفة (الغزل) في الحب ذروة السلطة الأنثوية في العصر الوسيط.



(١) يعني بها القصص التي سارت على نهج قصة كريستيان دي تروا (اللانسلو أو فارس العربة».

الفصل الثاني

أخبار محاكم الحب

إن مسألة دور الغزل (فن الملاطفة) في القرن الثاني عشر ربما لم يبتَّ فيها نهائياً، رغم الموقف الراسخ الذي تبنّاه القصصيون النوابغ مثل جاستون باري **gaston paris** وألفرد جوزوا **Jeanroy** . فإن كان وجود مجالس النساء هذه ليس موضع شك، فإنه ينقصنا بالتأكيد نصوص كثيرة لتحديد طبيعتها، وفوق كل ذلك، تأثيرها على المجتمع في العصر الوسيط. ماذا كانت محاكم السيدات هذه التي تُروى لنا عن مسألة الملاطفة؟؟ وهل كانت الحالات التي خضعت لها حقيقة أو متخلّية؟؟ وأية سلطة استطعن بها امتلاك «توقيفات الحب» **arrets d'amour** هذه الخاضعة للمحاكم الفريدة من نوعها؟؟ وكذلك الأسئلة التي لن يستطيع المرء الإجابة عليها مسبقاً قبل عمل ملخص تاريخي للمسألة وعَرْض أدلة المؤيدين والمعارضين لمجالس الحب.

إن تعبير «مجلس الحب» **cour d'Amour** نفسه لا يوجد — في الحقيقة — في أي نص من نصوص العصر الوسيط، أو على الأقل، بمفهوم العدالة أو القضاء الذي كانت النساء تجعله أحكاماً حقيقية على الخصومات التي تحدث بين المحبّين. وعندما يصادف المرء اصطلاح **cour d'amour** ، في معرض الكلام عن الملك آرثر على سبيل المثال، يجد أنه يشير فقط إلى مجالس السيدات اللامعات والفرسان الذين كانوا يعيشون في قصر «ملك الحب»، وفي كل مركز مشابه في بلاط الملك لويس الرابع عشر في قصر فرساي.

ونقطة الإنطلاق لكل هذه الأخبار التي نشأت بعد ذلك عن «مجالس الحب» والتي تبدو وكأنها عمل من أعمال نهاية القرن الخامس عشر، هي كتاب يُسمّى: «توقيفات الحب» **Arrets d'Amour** (١). وكان مؤلّفه مارتيال دوفيرنْي **d'Auvergne** نائباً في البرلمان عام ١٤٦٦م. وكغيره من المعاصرين، تلهّى بتأليف محاكمات وهمية على مسائل الحب، حتى أن بعضهم كانوا فاسقين اتخذهم نموذجاً وطرازاً للدعاوي التي كانت مألوفة لديه. ولكن هناك عملاً كان خيالاً خالصاً ووهماً، ذلك هو «لُعبة بازوشيان» الذي خُصص للّهو فقط، والذي لاقى — في الواقع — نجاحاً كبيراً.

---

(١) أي التوقيف أو السجن بجريمة حب على حد تعبير المؤلف.

هذا هو عنوان مؤلَّفه الذي كان — على الأرجح — السبب في غلطة نوستراداموس في القرن التالي، والذي ربما لم يكن عملاً لا إرادياً كلّية. ولقد كان جوهان دي نوستر يدام، أخو نوستراداموس المنجّم المشهور، نائباً في برلمان آرل Arles ومؤلّفاً للأغاني. ومعجباً متحمساً لكل ما هو جنوبي، وقد نشر سنة ١٥٧٥م «حياة أشهر وأقدم الشعراء البروڤانسيين الذين شُوِّهوا في زمن كونتات (جمع كونت) البروڤانس». إن مؤلّفنا الغريب، الذي يشوّش كل شيء، يؤكد في مؤلَّفه وجود «مجالس الحب» في القرن الثالث عشر في مقاطعة بروڤانس، أي وجود أقضية نسائية مكلّفة بالحكم حكماً نهائياً في المسائل العاطفية التي نوقشت من قِبَل الشعراء في محاوراتهم الشعرية Tensons. ولكن، على ماذا بُنيت تأكيداته؟؟

«يقول: إن المحاورات الشعرية كانت مناقشات حب تقام بين الفرسان والسيدات الشاعرات البليغات معاً عن بعض مسائل الحب الجميلة والرقيقة، وحيث لم يكونوا يستطيعون الإتفاق عليها، يرسلونها — للبتّ فيها — إلى السيدات الشهيرات الرئيسات اللواتي كُنّ يعقدن «مجلس الحب» الصريح السائد في سنْي Signe، وبييرفيه Pierrefeu، أو في رومانا Romanin، أو في مكان آخر، وفي هذه الأماكن كانوا يجرون التوقيف الذي كان يسمى «توقيف الحب» arrests d'amour.

وعندما يصف حياة برنارد دالامانو، تُكْتَب سيرته هكذا: «هذا الشاعر التروبادور كان عاشقاً لِبانيت أو استيفانيت دي رومانا، سيدة ذات مكانة، من بيت جانتيلمس، التي كانت تعقد في وقتها «مجلس الحب» الصريح والناشىء في قصرها في رومانا، قرب مدينة سانت-ريمي، في بروڤانس، وعمّة لوريت داڤينيو، من بيت ساد Sade، التي اشتهرت عن طريق الشاعر بترارك».

وبعد ذلك بفترة قصيرة: كانت فانيت وابنة أخيها «تحضران أمام الهيئة القضائية للمرافعة بصحبة عدد من السيدات الشهيرات وكريات البروڤانس واللواتي ازدهرن في ذلك الوقت في مقاطعة أڤينيو عندما أقام البلاط الروماني هناك، واللواتي انهمكن في دراسة الآداب، ووقفن مدافعات عن «مجلس الحب» الصريح، وحدّدن هناك مسائل الحب التي ترافعن عنها والمقترحَةُ والمرسلةُ إليهن...».

تلك هي النصوص الثلاثة التي يؤكد فيها جوهان دي نوستر يدام وجود محاكم الحب في سنْي وبييرفيه، وفي رومانا، في مقاطعة أڤينيو. ويضيف أيضاً، وبصورة متكررة ولكن بروايات مختلفة، أسماء القضاة المدعوّين للحكم:

إن مجالس الحب في سنْي وبييرفيه، وهما قريتان صغيرتان متجاورتان، وعلى نفس البعد تقريباً من طولون وبرينول، كانت تحكم فيها كل من:

١ — ستيفانيت Stephanette، سيدة برولكس Brulx، وابنة كونت البروڤانس.

٢ – أدالاري Adalarie ، زوجة ڤيكونت أڤينيو.
٣ – ألاتيت Alatete ، سيدة أونجل Ongle
٤ – هيرميسند Hermissende ، سيدة بوسكيير Posquieres
٥ – بيرتران ، سيدة أورجون Urgon
٦ – مابيل Mabille ، سيدة هيير Hyeres
٧ – كونتيسة داي Dye
٨ – روستانج Rostangue ، سيدة بييرفيه.
٩ – بيرتران ، سيدة سنْي Signe
١٠ – جوسيراند Jausserande ، سيدة كلوسترال.

مجلس الحب في مقاطعة أڤينيو كانت تتشرف بحضوره كل من:

١ – جيهان Jehanne ، سيدة بول Baulx
٢ – هيجت دي فوركالكييه Huguette de Forcalquier سيدة تريكت Trects
٣ – بريان داجو Briand d'Agoutt كونتيسة لالون La Lune
٤ – مابيل Mabille دي ڤيل نيف Villeneuve، سيدة ڤينس.
٥ – بياتريكس داجو Beatrix ، سيدة سول
٦ – إسورد دي روكيفيْ Ysoarde de Roquefieilh سيدة آنسوا Ansoys
٧ – آن، زوجة ڤيكونت دي تالار Tallard
٨ – بلانش دي فلاسان المدعوّة بلانكافلور Blankaflour
٩ – دولْس دي موستريه Moustriers ، سيدة كليرمان.
١٠ – أنتونيت دي كاديل Cadeult ، سيدة لامْبِسك Lambesc
١١ – ماجدالين دي سالون، سيدة مرموقة.
١٢ – ريكساند دي بيفارد Rixende de puyvard، سيدة تران Trans

ومن المعروف أن جوهان نوستريدام لم يخترع في كل القطع الدلائل التي يُقدمها لنا عن مجالس الحب هذه في إقليمه المحبوب. ولكن الناقد الحديث لا يجد امتعاضاً في التنبيه إلى بعض الأخطاء التي تقلّل من قوة وقيمة تأكيداته.

– إن مجالس الحب التي يتحدث عنها– أولاً قد وجدت في منتصف القرن الرابع عشر، أي في العصر الذي كان فيه البابوات يقيمون بعدُ في أڤينيو. وهناك فقرة قاطعة في كتاب «حياة الشعراء البروڤانسيين» تقول: «إن جيّون guillen وبيير بالبز ولوا دي لاسكاريس Loys de Lascaris كونتات ڤانتيميل Vintimille ، دي تاند Tende ، دي لابريج La Brigue ، هم شخصيات ذات شهرة واسعة، جاءوا في ذلك الوقت إلى أفينيو لزيارة إنوسانت

السادس باسم البابا، وكانوا قد سمعوا بحدود وأحكام الحب الصادرة من هؤلاء السيدات اللواتي ذهلوا وفتنوا بجمالهن وعلمهن وفوجئوا بحبهن». إننا بعيدون، في هذا العصر، عن الإنحطاط الاجتماعي والأخلاقي، وعن الفترة العظيمة التي تشير إلى ذروة أدب المجاملة، أي عن القرن الثاني عشر، أو بوجه أكثر دقة عن الثلث الأخير من القرن الثاني عشر، عصر إليونور وكونتيسة مقاطعة شامباني. ولقد باءت الفروسية البطولية بالازدراء والنسيان، مثلما كان الحال بالنسبة لشعر التروبادور الجميل تقريباً في العصر الذهبي. ومجالس الحب في القرن الرابع عشر لا تشبه أبداً تلك التي كانت في القرن الثاني عشر ولا تشبه تلك التي كانت في عصر كريستيان دي‌تروا. وفي المقام الثاني، فإن قائمة أسماء السيدات القاضيات التي أثبتها نوستراداموس، ليست أقل ارتياباً، ذلك لأن دراسة موجزة لبول ماير قد كشفت عن أخطاء كثيرة، كما أن عدداً من هؤلاء السيدات، حيث استطاعت الهوية الحقيقية لهن أن تثبُت ذلك، قد عشن في عصور مختلفة.

إن الدليل المأخوذ من المحاورات الشعرية، أعني، من تلك الأدوار أو من شاعرين يستعرضان بالتناوب قضايا متعارضة، تقام لدعوة حَكَم في النهاية، لم يعد مقبولاً وإن تعيين سيدات كمحكّمات لا يبرهن أبداً على أن هؤلاء السيدات قد بتَّنَ في المسألة في «مجلس الحب»، إلا أنه استنتج أن تلك المحاورات العديدة لم يكن الحكم فيها سيدة؟؟ أولاً، إن معظم أسماء السيدات المذكورات في المحاورات لا يشار إليها في قوائم نوستريدام وهؤلاء — وبعدد بسيط حيث يستطيع المرء أن يجد هذه المطابقة— قد كابدن من اضطرابات عاطفية شديدة أحياناً.

ولكن المرء —فوق كل ذلك— يجد داخل أي محاورة من المحاورات التي رواها نوستريدام تعبير «مجلس الحب». ولعل التعبير الوحيد المناسب هنا هو كلمة «مجلس» أو «ميدان التعليم»، والمثال الذي يوضح هذا هو ما جاء في «مجادلة التلهي بالملح» التي كانت بين جيرو دي‌ساليناك «وليس جرار، كما يقول نوستريدام» وبييرونيه: **A Peinafuxtramet mon partimen On la bella fai cort d'enseignamen; Lo meillor tenc perbon, qu' ela' ndia**

«— إلى بييرفيه **pierrefeu** أرسل قدّاحة، إلى شريك المجادلة (اللهو)

— هناك حيث تدير النساء مجلساً للتعليم والتأديب،

— ....

— سأتمسك من أجل الطيبة بحكمها مهما كان»

وليس أكثر في هذه الفقرة من غيرها من الفقرات في أن كلمة مجلس **cour** لا تحمل معنى «محكمة». إنها تعني فقط «مدرسة الخصال الحميدة»، ويقول الجميع أن «سيدة متعلمة جيداً» تدلّ في شعر التروبادور على سيدة جيدة التربية، سيدة مؤدبة. وأما ما بقي فيرجع إلى الوهم، ولا شيء في النصوص أو الأعمال يسمح بأن نقطع نهائياً —كما فعل جوهان دي‌نوستريدام— بوجود «مجالس الحب» بمفهوم على هذا الشكل.

ومع ذلك، فهذا ما فعله معظم هؤلاء المهتمين بالمسألة في القرن السابع والثامن عشر، بمزايدة بعضهم بعضاً.

هناك أديب ذو اطلاع واسع من القرن الثامن عشر، قرن الغزل والفلسفة، وهو لوجراند دوسي **Legrand d'Aussy** قد نشر عام ١٧٧٩ مجموعة «الفابليو **Fabliaux** (١) أو روايات من القرن الثاني عشر والثالث عشر». وأن واحدة من هذه الروايات التي يعرضها، مثلما جمع ثلاثا أخرى، كانت معروفة جداً في العصور الوسطى وهي (هيلين وإجلانتين، محاكمة الحب، فلورنس دبلانش فلير)، تضع بين أيدينا فتاتين أو شابتين، تحب إحداهما فارساً وتحب الأخرى مستخدماً في الإكليرك، وتعمل كل واحدة منها على الإشادة بمزايا حبيبها. ولمّا لم تستطع أي واحدة منهما إقناع الأخرى، تقرران — كما هو الحال في «مجادلات اللهو المرحة **jeux-partis** » التي تعالج مواضيع مُشابهة— أن تطرحا المسألة أمام القضاء في «مجلس الحب»، الذي يقضي بطبيعة الحال لصالح الإكليرك.

وفي حاشية الرواية هذه، يبسط الناشر بحثاً صغيراً عن «مجالس الحب»، بحثاً كله وهم وخيال حيث سيجد المرء بسهولة نقطة انطلاق نوستر يدام. يقول المؤلف: «ها هو واحد من تلك القوانين الغريبة التي يتعذر تصديقها، والتي ربما لم تدرك الروح الإنسانية إطلاقاً. ومع عدم جدواها الحقيقية والمهمة التي افترضها المرء، ستبدو لنا مضحكة جداً، ومع ذلك، فإن بعضها قد قوبل ببعض التقدير، واستمر بأقل الإمكانات واستطاع أن يتباهى بتأثيره في الأخلاق كذلك».

إن كاتبنا — من مبدأ هذا النظام الظريف— يبدو أكثر وضوحاً أيضاً، ولكن دون أن يستند إلى أي دليل، إذ أن: «المجادلات الدائرة حول المسائل العاطفية والتي كانت تطرح في «مجادلات اللهو» لم يضع منشدونا لها غاية، وقد فُطن —لتقريرها دون إجابة— إلى تشكيل نوع محكمةٍ أو مجلس أعلى أطلق عليه لهذا السبب اسم «مجلس حب». وكان القضاة فيه يختارون من بين الأشراف من الرجال، ومن النساء ذوات الشأن ومن الشعراء، وأصبح العرف في العالم والخبرة الطويلة لازمين في هذه الموضوعات. ولقد أكسبت النساء هذه المحاكم —بعد ذلك بقليل— ثقة الناس، بحيث أصبحت كل الأمجاد لهن (النساء). فتكاثرت بشكل مدهش، خصوصاً في الأقاليم الجنوبية، حيث لم يكن المرء يعرف أكثر من الأغاني، وكانت هذه المجادلات المهمة بالتالي قاسية على الأذواق: وغدا هؤلاء الذين كانوا في رومان أو روماني وبييرفيه —بين غيرهم— مشهورين. وأما في أقاليمنا الشمالية التي تبنّتهم، فقد كانت المجالس تبدأ تنشغل —في شهر مايو— بهذا المجال انشغالاً تاماً، تحت شجرة الدردار(٢) من حيث كان يُطْلق عليها «ألِهيات تحت الدردار الصغيرة».

---

(١) حكايات منظومة.

(٢) شجر عظيم له زهر أصفر وثمر يغرس على حافة الطريق للزينة والظل (المعجم الوسيط).

لكن الفقرة (المهمة) —إذ تتحاشى المجالس الصريحة فيها الخيال المبدع والزائد لدى عالمنا العظيم— هي تلك التي تصف لائحة وأهمية محاكم الحب هذه: «بسطت مجالس الحب وبسرعة سلطتها القضائية. وقد عرفت كل ما يزعج العشاق، وكل ما كان يتعلق بالغزل (الملاطفة). وكانت تدعو المذنبين للحضور إلى المحكمة، حتى أن هؤلاء المحاربين الشرسين الذين لم يكونوا يعرفون في خصوماتهم الأخرى غير قتال عدوّهم والسيف في يدهم، في حقل مسيّج، كانوا يأتون طائعين ودون تذمّر إلى هذه المحاكمات، ولم يكونوا يخشون شيئاً هناك. فإن كان هؤلاء قد عَظم ذنبهم، فقد كانوا يفرضون عليهم عقاباً مناسباً: يأمرون بالتفريق أو يعيّنون شكل الصلح بينهم. وكانت أحكامهم التي أطلق عليها اسم «توقيف الحب»، والتي سُنّت في فرنسا قانوناً من القوانين ولفترة طويلة، كانت محترمة إلى درجة أنه لم يكن امرؤ يجرؤ على ذكرها».

وليس غريباً أن استنتاجات كهذه كانت تبدو متجاوزة الحد وجريئة إلى درجة الزندقة، إن حسب امرئ أنها اعتمدت آخر الأمر على برهانين قاطعين مقنعين إلى درجةٍ ما، وعلى هذين فقط: فمن جهة، فإن تأكيدات نوسترادامس لا تنبع بالضرورة من أدلة يسوقها تأييداً لها، ومن جهة ثانية، فإن «توقيفات الحب» لمارتيال دوڤيرن، هي لهوٌ بسيط لقاضٍ، ولا علاقة لها «بمحاكمات» السيدات العظيمات في القرن الثاني عشر.

ولكن في بداية القرن الرابع عشر، اكتشفت وثيقة فعّالة في فرنسا، فغيّرت وجه المسألة تماماً، أو على الأقل سمحت بعرضها بشكل أكثر جدّية لم يُعهد من قبلُ حتى ذلك الوقت. وتتعلق بمخطوط يعود إلى القرن الرابع عشر، وهو «فن الحب» **De Arte Amandi** الذي يحتوي، بين صفحات شيّقة أخرى، بعض «محاكمات حب» صادرة من سيدات عظيمات في نهاية القرن الثاني عشر: مثل: أليينور داكيتانيا وماري دي شامباني،... الخ.

ولقد جعل عالم اللغات رينيوارد ذلك معروفاً لأول مرة في سنة ١٨١٧م عندما نشر مؤلّفه «مختارات من شعر التروبادور المبتكر».

ففي الجزء الثاني من ذلك الكتاب، هناك جزء من المقدمة مدوّن عن كل تطوّر في «مجالس الحب»، والذي استقصاه المؤلِّف بالتتابع معتمداً على كتاب «فن الحب» لأندريه لوشابيلان:

أ — وجود مجالس الحب :

— إن تلك المجالس كانت دون شك موجودة سابقاً في القرن الحادي عشر، وقبل كل شيء، في جنوبي فرنسا. وكان ذلك —على كل حال— موجوداً في نهاية القرن الثاني عشر إذ أن مخطوط لوشابيلان يذكر ذلك.

— من سيدات جاسكونيْ **gascogne** : محاكمة واحدة.
— من ايرمنجارد **Ermengarde** ، زوجة ڤيكونت (١) دي ناربون، خمس محاكمات.
— من كونتيسة فلاندر **Flandres** : محاكمتان.

«... إن هذه المحاكمات، قاسية أكثر منها رهيبة، حيث يمارس الجمال سلطة معروفة لدى أدب الملاطفة «الغزل»، والفكر، فكان يتحكّم بأمور الخيانة أو تغيّر المحبّين، وجفاء أو نزوة سيداتهم، وكان، بنفوذ لطيف لا يقاوَم، يطهّر الأخلاق و يرفع من شأنها، مستفيداً من الحضارة، كما كان يطهر و يرفع من شأن الهيام الشريف، ذلك الشعور المندفع الرقيق الذي منحته الطبيعة للرجل من أجل سعادته، ولكنه يخلق الألم لشبابه دائماً تقريباً، بل غالباً ما يجلب التعاسة لحياته كلها.».

ب — كيفية تكوين تلك المجالس :

— هناك «عدد كبير من السيدات» كانت تُدعى عموماً من قِبَل السيدة الرئيسة إلى هذه المجالس. وكان —مُعَيّنا، من أجل عقد واحد من الاجتماعات أثناء ذلك— أن تدعو كونتيسة دي شامبانيْ «ستين سيدة للاجتماع»: وكان ذلك يتعلق بالحكم على نجيّ (كاتم سر) كان قد قبل من صديق له دورَ الوسيط لدى سيدة ما، وطلب من ثم (حبها)، ونال مراده في حب السيدة المذكورة!!

ج — شكل المحاكمات المقضيّ بها :

— يقول رينيوارد : كان الخصوم منذ مدة وجيزة يمثلون أمام المحكمة بدعوة من السلطة، و يرفعون دعواهم، ومنذ مدة وجيزة أيضاً، كانت السيدات يناقشن، و يصدرن حكمهن على المسائل البسيطة التي كانوا يطرحونها. ولقد كان هناك «قانون حب»، كانت المادة الواحدة والثلاثون فيه تستخدم قاعدة للمناقشات وتلتقي في النتائج. ولم يكن هناك حتى تأليف الكتاب نفسه، أحكام مخالفة لتلك التي كانت في المحاكمات القضائية في العصر نفسه.

د — المواد المتناوَلة :

— ذلك هو موضوع المحاكمات العشرين التي كوّنت فصلاً كاملاً في المخطوط: وسنقوم بنقله وشرحه والتعليق عليه فيما بعد.

إن «مجالس الحب»، بالنسبة لرينيوارد، هي كثيراً ما كانت محاكمات نسائية، مثلما كانت لدى أسلافه تماماً. أو على الأقل كان يظن أنّ باستطاعته إقامة بحثه على دليل شرعي أكيد: وسنرى فيما بعد، وعند دراسة هذا الدليل عن قربٍ، ما إذا كانت كل نتائج رينيوارد قادرة على أن تكون تأييداً له.

---

(١) لقب للأشراف في الغرب.

وهذه هي نفس الفكرة التي يعتمد عليها من بعده ستندال **Stendhal** في سنة ١٨٢٢م، في ملحق جاء في كتابه «مِنَ الحب» **De l'amour** .

لقد «كان هناك مجالس حب في فرنسا من العام ١١٥٠م حتى عام ١٢٠٠م. وها هو البرهان عليها. ومن المحتمل أن وجود مجالس الحب يعود إلى عصر متأخر.

«إن السيدات المجتمعات في مجالس الحب، كُنَّ يصدرن أحكاماً بالتوقيف سواء على مسائل الحقوق —وعلى سبيل المثال في حالة ما إذا كان يحقّ للحبّ أن يكون بين أناسٍ متزوجين— أو على حالات خاصة كان المحبّون يعرضونها».

«وبمقدار ما أستطيع تصور الجزء الأخلاقي من هذه الشرائع القانونية، فإن هذا الأمر كان يبدو مشابهاً لما كان في مجلس مارشالات فرنسا، والذي أنشىء بهدف التشريف وبأمر من لويس الرابع عشر، غير أن الفكر دعّم هذا النظام».

ولقد نقل ستندال وشرح فيما بعد القوانين الواحدة والثلاثين الخاصة بحب أندريه لوشابيلان، والتي كانت تكوّن قانون مجالس السيدات.

ولنر الآن عن قرب ذلك الدليل الجليل الفائدة، والذي يكوّن المصدر الوحيد لأخبار العصر المتعلقة بالمسائل التي تشغلنا.





إن المخطوط الذي اتخذ قاعدة لعملنا هو ذلك المخطوط الموجود في المكتبة القومية تحت رقم (٨٧٤٨ لاتيني). وهو رقّ جميل من القرن الرابع عشر، محفوظ في حالة جيدة جداً، ومكون من مئة وتسع عشرة ورقة في عمودين.

و يتنوّع عنوان المؤلّف على حسب المخطوطات والطبعات. و يبدأ مخطوطنا بهذه الكلمات: «عقدة البداية الجوهرية تنطلق من المحبّة ونفور المحبين» (١). ولكن الفصل الأول في الصفحة التي تليها يبدأ هكذا: «بداية التحرر من فنّ العشق ونفور المحبين» (٢).

ويجد المرء و بتعسف أيضاً، الكلمات التالية: «النزيه وغير النزيه» (٣) مكتوبة بالحبر الأسود، بينما يجد أن كلمة «بداية» باللون الأحمر: «بداية التحرر من فن العشق النزيه (العفيف)، ونفور المحبين عديمي النزاهة والإستقامة» (٤)، وهذا ما يحدد بدقة أكثر طبيعة الحب التي أشار إليها المؤلّف: «عن فن الحب بنزاهة ونفور الحب غير النزيه».

والطبعة الأولى المعروفة دون تاريخ ولا اسم مؤلف، ولكنها لابدّ أن تكون بداية فن الطباعة، تسمى «مقالة حب» **Tractatus amoris** أما طبعة سنة ١٦١٠م، فهي تحت عنوان: «غزل، أو غرام **Erotica, seu Amatoria** وهكذا وتحت هذه المتنوعات الرشيقة، يتعرف المرء على المعنى العام نفسه.

و بناء عليه، فسنبقي على عبارة «فن الحب» **Art d'aimer** التي تشرح كل المصطلحات. وهذا أيضاً هو العنوان الذي وضعه أوڤيد **Ovide** لكتابه «فن العشق» **Arsamatoria**، وتأثير هذا المؤلّف في رجال الاكليرك في العصر الوسيط لا يمكن إنكاره، والكلمة «فن **ars**» هي التي كان اللاتينيون يشيرون بها إلى كل أنواع الأبحاث المختصة بفن ما: نحوي أو بلاغي أو شعري. ولكنها أطلقت على فن الحب تجاوزاً. وهذا ما فعله أوڤيد، في بحثه، عندما أراد التعبير عن ذلك في ثلاثة كتب: حيث يستطيع الرجال فيها مقابلة النساء، وكيف يستطيعون إسعادهن، والوسيلة لهم في ذلك هي كَلَفُهم باستمالتهن، وفي النهاية، الوسائل التي تملكها النساء للسعادة، وللسعادة مدة طويلة.

(١) نص باللاتينية.

(٢-٣-٤) نصوص باللاتينية أيضاً.

ولكن بحث أوقيد، الخليع جوهر ياً، كان مخصصاً، ليس لتهذيب مجتمع فاسد سلفاً، وإنما خصص للترفيه عنه فقط. وكذلك الحال بالنسبة لكتّاب العصور الوسطى الذين نقلوه وشرحوه، مثل بحث كر يستيان دي تروا الذي فُقِد لسوء الحظ، أو أن رجال الاكليرك الذين طبّقوه، قد تركوا الأحكام المستهترة التي لا فائدة منها بالنسبة لعصرهم جانباً. ولقد احتفظوا ببعض القواعد العامة فقط، ولكن هذه الفكرة كانت جوهر ية وخاصة في مدارسهم، و يبدو الحب فيها — كما هو في غيرها — فناً قادراً على أن يُدَرَّس، كما يستطيع المرء به إتقان دراسة قوانينه: وسيكون ذلك — فيما بعد — علامات مميّزة للحب العفيف. والكتاب سابق الذكر هذا أحسن منه فن حب حقيقي أن يكون قد نظّم التطبيق العملي للقواعد التي تتصدّر العلاقات العالمية في القرن الثاني عشر.

و يدعى المؤلف الذي لا نعرف عنه الشيء الكثير، ميتر أندر يه، وقد كان فرنسياً ورجل كنيسة وأميراً في نفس الوقت. والأخيرة هذه هي خاصة من خواص أهمّيته. إذ أننا — في الواقع — في نهاية القرن الثاني عشر أو بداية القرن الثالث عشر، وهو العصر الذي كانت قد جُدّدت فيه أعلامُ الأشخاص: أما اسم المرء الأول المشار إليه حتى ذلك الزمان، فيضاف — فيما بعد — كلقب ثانٍ، مأخوذ من المهنة، أو من الحالة، أو من الكُنية. كما يُنْسَب الكتابُ لأندر يه لوشابيلان(١)، وهو اسم مهنة كما هو الحال بالنسبة لأندر يه ليكونيه أو أندر يه لومرسييه **Mercier** (٢).

فهل كان أميراً في بلاط ملك أو ملكة فرنسا، كما يشير مخطوطنا ذلك؟؟ أم هل كان كاهناً لدى البابا إنوسنت الرابع، كما تشير إلى ذلك الطبعة غير المؤرخة سابقة الذكر «مقالة حب» **Tractatus amoris**.

لقد نوقشت تلك المسألة على وجه مختلف وحازم من قبل إي تروجل وجاستون باري. وليس مهما — من جهة أخرى — أننا لا نعرف تار يخ المؤلَّف ولا حياة المؤلِّف. و يكفينا أن نعرف أن هذا الوصف المنظَّم لفن الغزل، أو كما قيل أن هذا «المذهب التعليمي للغزل العفيف» هو ذلك الذي مورس في نهاية القرن الثاني عشر. وقد أثبت هذا بما فيه الكفاية، بتقر يظ السيدات العظيمات اللواتي ذكرتهن «محاكمات الحب»: ملكة فرنسا أليز، أليفور دي بواتو، كونتيسة شامبانيْ... الخ.

ولقد أجر يت أبحاث مدقّقة على يد نفس العلماء الباحثين عن شخصية بطل جوتييه، الذي أهدي العَمَلُ له. ويخبرنا كتاب «البداية» أنه موجّهٌ إلى «صديقه جوتييه، الذي كان راغباً بالخدمة في فروسية الحب»(٣) **"ad gatteriumamicum suum cupientem in a moris exercitu militare"** .

إن الصفة **"venerande amice"** (المحب المحترم) المشار إليها في بعض السطور بعد ذلك

(١) تعني كاهناً أو أميراً.

(٢) تعني عقاداً أو خردجيا.

(٣) كانت رتبة للفروسية عند الافرنج القدماء.

تبين لنا أنها قد أتت في صدد الكلام عن شاب ذي قيمة. وفي النهاية، فإن كلمة « explicit صريح» تحدّد بدقة أن هذا هو «حفيد ملك فرنسا المشهور».

ونقرأ عَرَضاً —على هوية جوتييه gautier الصغير نفسها— مناقشة تروجل-باري. وسيكفينا معرفة أن المُرسَل إليه— والذي باستطاعته بعد كل هذا ألاّ يكون سوى مرسلٍ إليه وهميّ— يُعْتَبَر نبيلاً شاباً، ربما يكون ابن أخ أو ابنَ ابنِ أخي ملك فرنسا، وأن هذا الشاب يرغب بالدخول في «فروسية الحب»، أو بعبارة أخرى أكثر بساطة، هو توّاق لمعرفةِ كيف يجب عليه أن يتصرف مع السيدات ذوات المستوى الرفيع، وفي كل المناسبات. وللإطلاع على قواعد اللياقة هذه، ألّف ميتر أندر يه «مختصَرَه عن فن الغزل». **Manuel de la Courtoisie**.

ويحتوي هذا العمل على كتابين، بطولٍ وأهمية غير متساو يين. ففي الكتاب الأول، يضع المؤلف على المسرح أبطالاً خياليين يمثّلون جميع طبقات المجتمع في العصر الوسيط: فلاحين وأناسٍ من الشعب، بورجوازيين و بغايا ذوات ذكاء ولباقة، ثم إكليرك ورهبان. ولكن كما هو مفروض، فإن أطول التطورات كانت مكرسة وموقوفة على الحب بين سيدات نبيلات وفرسان بواسل. وتفيدنا فصول مختلفة فيه كيف يجب على أمير من طبقة رفيعة، متوسطة أو دنيا أن يخاطب سيدة نبيلة وذات مكانة رفيعة، أو من طبقته أو أدنى منها، وكيف يجب على تلك السيدة أن تجيبه على دعوات حبه هذه. إن موضوع هذه المحاورات —فضلاً عن ذلك— هو موضوع واحد ظاهراً: فارس يرجو حبا من سيدة تبدأ دائماً بالإمتناع، و يبحث العاشق عن إقناعها بحجج متفاوتة في الرقة واللطف، حتى ينال —في النهاية— أمله في أن يصبح محبو باً يوماً ما على الأقل.

أما الكتاب الثاني فهو الأقصر، ولكنه الأكثر تشو يقاً وأهمية بالنسبة لموضوعنا وهو يكوّن الجزء المعروف أكثر، والأكثر شهرة أيضاً. ودون شك، فإن الفصول الخمسة الأولى، والقصيرة جداً، ليس فيها كثير إبداع: كيف يكتسب الحب؟ كيف يصان؟ كيف ينمو؟ كيف يقلّ ثم ينتهي؟ هذه هي الحقائق العامة لهذا الأمر، والتي لا جديد في تطبيقها في «المغازلة الشر يفة»، ماعدا —ربما— في نقطة واحدة: وهي أن السلطة لا تدوم للحب العفيف بلا نهاية فحسب، وإنما يُعتقد بها وتمجّدُ دون انقطاع، منميةً «سعادة الحب هذه» والتي سندرسها مفصّلة أكثر فيما يتعلق بالشعراء الترو بادور.

ولكن الجزء الأكثر طرافة هو ذلك الجزء الذي يكوّنه الفصلان السابع والثامن، والذي سنترجم له فيما بعد ترجمة تامة. إنه يتعلق —أولاً— «بمحاكمات الحب» الشهيرة الصادرة من سيدات العصر الشهيرات، ثم «بأنظمة الحب» التي كانت تكوّن قوانين «فن المجاملة-الغزل». وهذه الفصول هي بالضبط الوثيقة الجوهر ية التي اعتمد عليها في وجود «مجالس الحب». وعلى هذا سندرسها بالتفصيل قبل البدء بالمناقشات التي دارت حولها.

ولكننا نستطيع —سلفاً— أن نشير بكلمة إلى الروح العامة للعمل: إنه الإخراج بشكل ابتداعي عقائدي، وإخراج الأفكار والآراء والمشاعر والأعمال في القرن الثاني عشر فيما يتعلق بأمور «المجاملة والحب». فمن وجهة النظر هذه، فإنه يتمتع بقيمة تاريخية لا تقبل الجدل، وسنرى تطبيقاً وتمجيداً للمذهب المعروض كذلك في شعر التروبادور مثلما هو في روايات كريستيان دي ترروا. و«فن الحب» لشابيلان هو القانون المجرّد الذي يرسي الأسس لعلم العشق التجريدي كله في ذلك العصر، بالإضافة إلى الحب العذري أيضاً. لأن هذا الحب الذي سنرى طبيعته وقواعده ليس «هو -كما يقول فورييل- ذلك الحب الطبيعي المبتذل والذي يتحدث عنه العالم كله، وكما يبرهنه العالم أو يستطيع أن يثبته، هذا الحب الذي يغنّيه الشعراء في كل وقت وفي كل بلد كمصدر للّهو المرغوب في الحياة كثيراً. بل إن الحب المعلّم المشهور، والذي يسعى إلى المجد، هو ذلك الحب الشريف الخالي من الشهوات الجسدية، وهو الأصل السامي لكل قيمة وفضل، هذا هو الحب الذي مجّده الشعراء التروبادور، والنبع لإلهاماتهم الشعرية».



الفصل الرابع

قانون الحب

Le Code de l'amour

إن الفكرة القائلة بأن الحب فنّ، وفنٌّ قابل لأن يكون مدروساً كغيره من العلوم، ليست فكرة جديدة مبتكرة —كما رأينا— في العصر الوسيط. وإنما كانت معروفة سلفاً منذ أقدم العصور، وبالتحديد، منذ عصر أوفيد **ovide**، ذلك المؤلِّف الذي كانت دراسته ممارسةً في المدارس بشكل واسع. ولكن العصر الوسيط قد طبّق هذا التعليم الذي أعطاه شكلاً خاصاً، ملتزماً بالشكل الخاص لمجتمع العصر الوسيط. والمجتمع الإقطاعي —في الواقع— مميّز أصلاً بنظام الكهنوت.

ولقد وُجدت —بين الإقطاعي الكبير وصاحب الإقطاعية الصغيرة، وبكل درجات تطور ذلك النظام الكهنوتي— حقوق وواجبات محددة بدقة ومراعاة بشدّة. وكانت تطبّق —في إطار ذلك النظام، نظام الفروسية— القواعد المحددة جداً في القانون المعروف لدى الجميع حتى في أدقّ التفاصيل. وكان من الطبيعي جداً أن تكون الحاجة للتنظيمات القانونية نفسها محسوسة في نظام الفروسية المجاملة: إذ كان على الفارس الذي يريد معرفة سيدة، «كإقطاعية حب» يكرّس حياته كلها لها، أن يعرف الالتزامات الواجبة عليه حتى في أدق التفاصيل. ولهذا كان قانون الحب مهماً لذلك.

ويعلم المرء —من جهة أخرى— عدد وأهمية مدارس القرن الثاني عشر، وخاصة في جنوبي فرنسا، حيث كانت مزدهرة هناك أكثر من ازدهارها في الوسط. وفي تلك المدارس —والحالة هذه— كان يعلّم رجال الاكليرك النُّظم المختلفة مع علم الإعتقاد الذي يعرفه المرء عن كل المواضيع: وكان المرء ينطلق من مبادىء مسلّمٍ بها دون مناقشة، بمقتضى سلطة السيد، والتي كانت تنشأ منها النتائج التي تقتضيها منطقياً. وكانت المناقشة نفسها تقام على نفس الخطّة: قضيّة، ومقابلة، ثم جمع الأجزاء للتفرقة التي تتعلق بالفلسفة أو الأخلاق. وهذه هي نفس النظرية التي كانت واجبة التطبيق على مسائل الحب. ولكن، كان ينبغي —كما هو الحال في المدرسة أو المحكمة— أن يكون هناك قانون يستطيع المرء الإعتماد عليه، وكان ينبغي كذلك سلفاً أن يكون هناك قانون للحب لقطع المناقشات العاطفية أو الحالات المتعلقة بضمير عاشق حساس جداً.

هذا هو قانون الحب الذي أطّلعنا عليه —لأول مرة— عمل لوشابيلان. ولم يكن —فضلاً عن ذلك— مبيّناً في فصل واحد، ولكن في ثلاث فقرات مختلفة سنعرضها بكامنها: وستسمح مقابلتها

بإعطاء فكرة كاملة عن القواعد التي كان من الواجب معرفتها، ثم ممارستها مِنْ قِبَل كل من كان يريد اتباع «أوامر السيدات».

١ — نظرية المغازلة (أدب الملاطفة):

وهي معروضةٌ في الكتاب الأول، في الفصل الخامس، وفيه يخاطب رجل من مكانة أدنى سيدة نبيلة: وتطلعه هذه السيدة على ما يجب عليه عمله من أجل أن ينال حبها.

٢ — تعاليم (أو أحكام) الحب:

في الفصل السابع من نفس الكتاب، سيدة تستدعي رجلاً من نفس المستوى، ثم ما ينبغي له عمله أو تجنبه ليكون محبوباً عندها. هذه هي القواعد مختصرة إلى أدنى حد، إذ أنه لا يوجد منها سوى ثلاثة عشر قانوناً.

٣ — قواعد الحب:

وفي النهاية، في الكتاب الثاني، والفصل الثامن منه، يعطي المؤلف — ولحسابه الخاص — للشاب جوتييه قانوناً مكوناً من إحدى وثلاثين مادة. وهو قانون يكون فيه فارس ذو قيمة من بريتون ذاهباً للبحث في بلاط الملك آرثر نفسه. وبعد حشد من النهايات التمثيلية والمآثر الفاضلة لروايات «المائدة المستديرة»، كافأ ملك الحب الفارسَ الشجاع بإعطائه هدية، وكانت صك الشرف الثمين: وهو إعلان للحب الذي شُغل بتقديمه للعالم. وهذا هو — في الواقع وحسب ملاحظة فورييل التهكمية — ما «كان المرء في حاجة كبيرة إليه، كما كان حاصلاً آنذاك.».

وسيجد المرء داخل هذه الفقرات الثلاث أوامر متكررة، كما كان باستطاعته أن يرى في هذا العرض خطأً في الإنشاء، ولن نكون مبالغين أيضاً، إذ أنه يحتمل أن يكون الجلساء أو المؤانسون في بلاط إليونور أو في بلاط كونتيسة شامبانيْ في ذلك العصر قد حصلوا على مجموعة أحكام سهلة الحفظ كانت تحت تصرفهم، أنواع صغيرة من تعاليم الحب المسيحي أوجزت جوهر التزاماتهم المجامِلة. ومن السهل أن نفترض أن القالب كان هو نفسه في كل مكان، وكان باستطاعة التأليف أن يختلف في الشكل وأن يكون متطوراً قلّ أو كثر ذلك التطور. ويكون من المسموح — في هذه الحالات — الظن بأن أندريه لوشابيلان قد اكتفى بتقليدها في ثلاث فقرات مختلفة، ثلاث من تلك القواعد الشائعة بما فيه الكفاية يومئذٍ، بدلاً من تقديمها هي نفسها كنموذج وحيد.

١ـ نظرية المجاملة (الملاطفة الغزل):

إن على من يريد أن يكون جديراً بالخدمة في «فروسية الحب» ألاّ يبدي أي بخل، ولكن عليه أن يكون قادراً وجديراً بالكرم وأن ينفع به من يقدر على نفعهم. فإذا شاهد أناساً نبلاء ومخلصين وأصحاب

نزاهة في ضيق وفقر، وإذا اعتبر أن كرمه نافع لواحدٍ منهم. فعليه ألاّ ينتظر حتى يطلب المرء منه ذلك: وهذا أمر مسلَّمٌ به وذلك لأنه كان مطلوباً، و يبدو —في الواقع— أن ذلك يُنال بطريق ودّية، فإذا لم يجد الفرصة للإحسان واستخدام كرمه مع أحدهم، كان عليه أن يتنازل عن الشيء المفيد بقلبٍ فرح لأنه سيبدو أكثر سعادة لتقديمه هدية لصديق يرضى أن تكون مِلكاً له. وإذا رأى فقراء السيد المسيح يتضورون جوعاً وأعطاهم ما يأكلون، فإنه يستحق شهرة «المجاملة والنجابة».

— إن كان له سيد، كان عليه أن يشهد له بالإحترام الواجب له عليه.
— عليه ألاّ يكفر في كلامه بالله أو القديسين كما عليه أن يبدو متواضعاً مع الجميع ومستعداً لخدمة كل الناس.
— عليه ألاّ يحتقر (أو يغتاب) إنساناً في كلامه، لأن النّمامين لا يستطيعون الإستمرار في موطن «أدب المجاملة».

— عليه ألاّ يطري الأشرار الخبثاء، ولكن عليه —إذا كان ذلك ممكناً— أن يصلحهم بالتوبيخ الذكي الرزين. وإذا شعر بأن واحداً بدا غير قابل للإصلاح، كان عليه أن ينفيه من مجتمعه كشخص غير مرغوب فيه، خوفاً من أن يتخذه أحد صديقاً له عن طريق الخطأ.
— عليه — علاوة على ذلك — ألاّ يستهزىء بالناس التعساء أبداً.
— عليه ألاّ يكون مشاغباً ولا سريع الغضب في نزاعه، ولكن عليه أن يكون —بقدر الإمكان— قادراً على إخماد الخصومات.

— أن يكون ضحكه معتدلاً هادئاً في حضور السيدات، لأن الضحك المفرط —بناء على حكمة سليمان الحكيم— يشبه الجنون، والحقيقة أنّ النساء الذكيات يبتعدن عامة عن الرجال الحمقى أو الرُّعْن، بينما يتحقرنهم النساء الجميلات أو يسخرن منهم. والواقع أن سلوك الحب يتطلب كثيراً من الفطنة و يستدعي ممارسة كل المعارف.

— عليه أن ينكبَّ على مباهج الحب باعتدال وقناعة.
— عليه أن يمدح ويحترم —من قلبه— أعمال الأقدمين.
— عليه أن يكون شجاعاً في المعركة، وفي وجه العدو حذراً وداهية.
— عليه ألاّ يكون عاشقاً لكثير من النساء، ولكن عليه —من أجل واحدة منهن— أن يكون خادماً للجميع فيهن، وأن يبدو للجميع متفاتناً، عاقلاً ولطيفاً وجديراً بالحب، ومع ذلك يعتقد البعض أنه يسر المرأة كثيراً إذا تكلم أحد بطريقة حمقاء ومضحكة، أو تصرّف بطريقة مخالفة للصواب.
— عليه ألاّ يتفوّه بكلمات كاذبة مخادعة، ولكن عليه أن يتحاشى كثرة الكلام وكثرة السكوت.

— عليه ألاّ يعد إنساناً ما وعداً سريعاً وجريئاً، لأن ذلك الذي يعد بسهولة، سَيُكْرَهُ على التمسك بكلمته، والجريء في وعوده يقابل بعض التصديق. وإذا رغب امرؤ أمين بأن يقدّم له هدية، عليه أن يقبلها بسرور، ولا سبيل لرفضها إذا كان مقدّم الهدية معتقداً أنها نافعة، ولو أنها لم تكن كذلك، ويستطيع حينئذ أن يجيب هكذا: «إن هذه —في هذه اللحظة— ليست ضرورية لي، إلاّ أنني أعتبر كأنها أعطيت لي، وسأتركها لك، فاحتفظ بها باسمي».

— عليه ألاّ يقول أية كلمة مشينة، وعليه أن يتجنّب الأعمال القبيحة وفوق كل ذلك الوشايات الخسيسة.

— عليه ألاّ يغشّ إنساناً بوعد كاذب، لأنه لا يهم مَنْ يقدر أن يكون غنياً بالوعود. فإذا خُدِع بوعد كاذب، وإن كان يبدو مجاملاً، فعليه أن يصنع له الخير ويقدّم له الخدمة في كل مناسبة: كذلك يقوده —وبحكمة— لمعرفة خطئه.

— عليه أن يبدو مضيافاً للجميع طواعية.

— عليه ألاّ يتفوّه ضد رجال الاكليرك أو رهبان الله أو ضد أي شخص ذي بيتٍ ديني، ولا يتفوه بكلام شائق مخجل أو متهكّم، ولكن عليه —بكل قوته ومن كل قلبه— أن يقابلهم دائماً وأينما كانوا بالإحترام الواجب لهم عليه، وذلك للّذي من أجله هم يتمّون واجبهم الإلٰهي.

— عليه الذهاب إلى الكنيسة غالباً، وهناك، عليه أن ينصت بانتباه لهؤلاء الذين يحتفلون بقدّاسهم، مع أن البعض يعتقدون —بغباء شديد— أنهم يسعدون النساء في السخرية من كل ما يتعلق بالدين.

— عليه أن يكون مخلصاً في كل كلامه.

— عليه ألاّ يكون حاسداً نجاح أي إنسان.

هذه هي الأحكام موجزة باختصار لك، فإذا سمعتها بأذن صاغية، وترغب في وضعها موضع التطبيق، سَيُحْكَم لك بأهليتك للمناقشة في «مجالس الحب».

٢ - أحكام الحب الأصلية :

معروف أن هناك ثلاثة عشر حكماً للحب، وهي:

١ — تجنّب البخل كآفة خطيرة، ومارس —بخلاف ذلك— الكرم.

٢ — تحاش الكذب دائماً.

٣ — لا تكن نمّاماً.

٤ — لا تفشِ أسرار الأصدقاء.

٥ — لا تتخذ كثيراً من الأنجية (١) لحبك.
٦ — أحفظ نفسك نقياً لحبيبتك.
٧ — لا تحاول —بمهارة— التحوّل من حبيبة إلى غيرها.
٨ — لا تبحث عن الحب عند امرأة ستشعر بالعار إن تزوجتها.
٩ — كن دائماً متنبهاً لأوامر السيدات.
١٠ — إسْع في أن تكون دائماً أهلاً لامتلاك «فروسية الحب».
١١ — إظهر —في كل مناسبة— بمظهر المؤدّب الملاطف.
١٢ — في حالة اغترافك من ملذات الحب، لا تتعدّ على رغبة حبيبتك.
١٣ — إن تُعط أو تأخذ ملذات الحب، احتفظ ببعض الحياء دائماً.

٣- قوانين (قواعد) الحب:

لِنَرَ قوانين الحب التي يجدها المرء مدوّنة في صكوك الشرف. وها هي القواعد:

١ — عذر الزواج ليس عذراً مقبولاً ضد الحب.
٢ — مَنْ لا يَغِرْ لا يستطع أن يحب.
٣ — لا أحد يستطيع أن يكون على علاقتين في وقت واحد.
٤ — من المرجّح أن الحبّ يقلّ أو يكثر دائماً.
٥ — لا طعم لذلك الذي يناله المحب دون رضى محبوبته.
٦ — لا يستطيع الرجل أن يحب الاّ بعد البلوغ.
٧ — على مَنْ يعيش —إذا مات محبوبه— أن ينتظر سنتين بعده.
٨ — لا أحد يستطيع —دون سبب كافٍ— أن يمتنع عن غاية حبه.
٩ — لا أحد يستطيع أن يحب حقيقةً دون أن يكون مدفوعاً بأمل الحب.
١٠ — يهرب الحب من بيت البخل دائماً.
١١ — لا يليق بالمرء أن يحب سيدة سيشعر بالعار إن جعلها زوجة له.
١٢ — لا يرغب العاشق الحقيقي بقبلات غير قبلات حبيبته.
١٣ — نادراً ما يستطيع الحب أن يستمر، عندما يكون مذاعاً بشكل واسع.
١٤ — استمالةٌ سهلة في تقديم الحب دون قيمة، هي استمالة لا تعطيه ثمناً إلاّ بصعوبة.
١٥ — على كل عاشق أن يمتقع لونه بحضور حبيبته.
١٦ — على العاشق أن يرتعش قلبه في حالة رؤية محبوبته فجأة.

(١) جمع نجيّ وهو كاتم السر.

١٧ — الحب الجديد يطرد القديم.

١٨ — المزيّة وحدها توصل إلى أهلية الحب.

١٩ — عندما يفتر الحب، يضعف بسرعة، ونادراً ما يعود إلى حاله الأول.

٢٠ — يكون العاشق فَزِعاً دائماً.

٢١ — غيرة حقيقية تعمل على الإعتقاد بوجود الحب.

٢٢ — تزداد الغيرة وحرارة الحب من شكّ المرء بحبيبته.

٢٣ — لا ينام ولا يأكل من صهرته آلام الحب.

٢٤ — أي قرار للعاشق لا يهم أن يصل لفكر محبوبه.

٢٥ — إن العاشق الحقيقي لا يجد شيئاً حسناً إن كان لا يرضي المحبوبة جيداً.

٢٦ — لا يعرف العاشق أن يرفض شيئاً لمحبوبته.

٢٧ — لا يستطيع العاشق أن يرتوي من لذات حبيبته.

٢٨ — أقلّ زهو يدفع العاشق إلى إساءة الظن بحبيبته.

٢٩ — لا يحبُّ حقيقةً، ذلك الذي ينقاد إلى كثير من الفجور.

٣٠ — يكون العاشق الحقيقي مشغول الفكر دائماً بطيف حبيبته الدائم.

٣١ — لا شيء يحمي امرأة من أن تكون محبوبة عند رجلين، ولا يحمي رجلاً من أن يكون محبوباً عند امرأتين.

هذه هي القواعد التي أخذها معه فارسنا من بريتون، وقدّمها بأمر من «ملك الحب» الشهير، مع الباز، للسيدة من أجل حب تلك التي تحمّل منها كثيراً من المضار.

ولما أن أقرّت هذه السيدة بإخلاص الفارس متضمّنة قيمته وجرأته كلّية، كافأته، لحبّه، بكثير من المآثر. ثم إنها بدعوتها لمجلسها كثيراً من السيدات ومن الفرسان، جعلتهم يعرفون قواعد الحب هذه، وفرضت على جميع العشاق مراعاتها بدقة تحت سلطة «ملك الحب». ولقد قبلها البلاط بالإجماع ووعد —تحت عذاب الحب— بمراعاتها للأبد. كذلك، فإن كل واحد من هؤلاء الذين كانوا يدعون إلى البلاط قد أخذ هذه القواعد مكتوبة لتسليمها إلى كل العاشقين في جميع أنحاء العالم المختلفة.

ولقد كان من السهل —بمقابلة الفقرات الثلاث هذه— إنشاء نظرية كاملة للحب العفيف بصيغ كانت تؤلّف «مبادىء الفارس-الخادم» الأمثل. وسنجد أصل ذلك حين ندرس فيما بعد شخصيات ذلك الحب. وسنرى كذلك أن تلك هي الأوامر التي يجد المرء تطبيقاً لها في محاكمات سيدات «مجالس الحب»، اللواتي سيطبّقن في استنتاجاتهن قواعد قوانين الحب، وفي شعر الشعراء التروبادور الذين يعجبون بأنفسهم حين يطبّقون هذه القواعد حرفياً لنيل حب سيدتهن، وفي النهاية، في روايات «المائدة المستديرة»، خصوصاً، في روايات كريستيان دي تروا، جليس بلاط كونتيسة شامباني، والتي كتب لها «لانسلو أو الفارس ذو العربة»، ميثاق خضوعه الكامل لسيدته.

الفصل الخامس

محاكمات الحب

ها نحن قد وصلنا إلى الفصل الأكثر تشويقاً من كتاب أندريه لوشابيلان. وهو يتعلق بالمحاكمات الصادرة عن «مجالس السيدات» حول مسائل «قضاء المجاملة» والتي كانت خاضعة لهن. وسنرى في الفصل التالي التأويل الذي يستطيع المرء إعطاءه لتلك الأحكام والمناقشات التي أخذت مكاناً. ولْنَر أولاً النصوص نفسها، التي سنقدمها مكتملة.

إن الأحكام الواحدة والعشرين التي دوّنها لوشابيلان موزعة كالآتي:

- سبعة صادرة من كونتيسة (مقاطعة) شامبانْي: وهي الأحكام ١، ٣، ٤، ١٣، ١٥، ٢٠، ٢١.
- خمسة من أرمنجارد دي ناربون: وهي ٧، ٨، ٩، ١٠، ١٤.
- ثلاثة من الملكة إليونور: وهي ٢، ٥، ٦.
- ثلاثة من ملكة فرنسا: وهي ١٦، ١٨، ١٩.
- اثنان من كونتيسة فلاندر: وهما ١١، ١٢.
- واحد من مجلس سيدات في جاسكونْي: وهو ١٧.

وعلى هذا، فإن بيان السيدات نفسه، اللواتي أصدرن تلك الأحكام، وأن الدلائل التي نملكها عن حياتهن تسمح بتحديد وضع العصر تماماً حيث أصدرنها فيه. ويستطيع هذا العصر أن يكون محدداً في النصف الثاني أو بالأحرى في الجزء الثالث من القرن الثاني عشر، أي أثناء حكم لويس السابع الملقب بالصغير.

والملكة إليونور أو أليونور داكيتانيا، حفيدة أول شاعر تروبادور، دوق أكيتانيا جيوم التاسع، قد أصبحت —في الواقع— ملكة لفرنسا في عام ١١٣٧م بزواجها من الملك لويس السابع. ولقد طلقها لويس السابع عام ١١٥٢م، وتزوجت في نفس العام من دوق نورماندي، هنري بلانتاجنيه، الذي أصبح في عام ١١٥٤م ملكاً لانجلترا. وكانت تعتني بمسائل «المجاملة»، وهي ملكة لانجلترا كما كانت وهي ملكة لفرنسا. وتوفيت عام ١٢٠٤م.

إن ملكة فرنسا التي تدور حولها المسألة في عمل لوشابيلان ليست الملكة إليونور التي اختلط أمرها

على رينيوارد، لكن أليز أو أليكس دي شامبانْي هي التي أصبحت عام ١١٦٠م الزوجة الثالثة للملك لويس السابع. وقد ترمّلت في عام ١١٨٠م. وماتت في عام ١٢٠٦م.

وكونتيسة فلانْدر المشار إليها هنا هي اليزابيت دي ڤيرماندوا، التي تزوجت من فيليب دي فلانْدر عام ١١٥٦م، وتوفيت في عام ١١٨٢م.

كما أن كونتيسة دي شامبانْي، ماري دي فرانس، هي الابنة الحقيقية لإليونور داكيتانيا، التي تزوجت عام ١١٦٤م من هنري الأول، على حد قول كونت دي شامبانْي الليبرالي. وهي التي دفعت كريستيان دي ترِوا —بطلب منها— إلى تأليف عمله: «لانسيلو»، وهي رواية الخضوع للسيدة. وقد توفيت عام ١١٩٨م.

وفي النهاية، فإن إرمنجارد التي كانت زوجة ڤيكونت(١) دي ناربون عام ١١٤٢م، قد تنازلت عن العرش عام ١١٩٢م، وماتت عام ١١٩٢م أيضاً.

وها هي ترجمة الواحد والعشرين حكماً من أحكام الحب التي أصدرتها هؤلاء السيدات الماجدات.

الحكم الأول

فارس هام بحب سيدة حباً مفرطاً، وكان ملازماً لها ملازمة تامة، ولكن المرأة —وإن كانت تراه هائماً بها— كانت ترفض حبه رفضاً تاماً. ثم إنها —وإن كانت تراه دائماً يتعذب بحبها أيضاً— قد قدمت له ذات يوم هذا العرض:

«إنني في الحقيقة أعرف آلامك الطويلة من أجل حبي، إعلم إذن أنك لن تستطيع أبداً أن تناله، إن لم تستوعب ذلك العهد الشرعي: ستطيع كل أوامري دائماً، وإذا فاتك واحد منها(٢)، ستكون محروماً من الحب تماماً».

وقد أجابها العاشق بالآتي: «بعيد جداً عني —سيدتي— فكرة أن أكون مخالفاً للصواب لأقصّر أو أخطىء واحداً من أوامرك!! أقسم وبطيب خاطر أن ذلك الذي تطلبينه مني، ما هو إلا شيء مستحبّ عندي».

هذا، وأمرت المرأة على الفور بألاّ يتحاشى بعد ذلك عذاب حبه، كما لا يجوز له أن يشيد بذكرها أمام الملأ. فإذا كان ذلك صعباً، تحمّله العاشق —مع ذلك— بصبر. ولكنه وجد نفسه يوماً مع فرسان آخرين، بحضور بعض السيدات، وسمع رفاقه يتناولون أحاديث غير لائقة أبداً عن حبيبته، وتسبب

(١) لقب للأشراف في أوروبا.

(٢) من أحكام الحب.

ذلك —وهذا ضد كل حق وعدالة— بأذى لسمعتها. ولقد احتمله في بادىء الأمر بألم. ثم إنه لما رأى أن هؤلاء قد استمروا في محاربة سمعة سيدته، عندئذٍ، ثار ضدهم وضد قولهم بشدّة، ووقف بشجاعة

لتأنيبهم على افترائهم ونميمتهم، ولحماية سُمعة سيدته. ولكن عندما طرق هذا مسامع السيدة المذكورة هذه، أعلنت أنه قد أصبح محروماً من حبها، وذلك لأنه —في إشادته بذكرها وتقريظها— قد خالف أوامرها.

وها هو الحكمُ الذي أصدرته كونتيسة دي شامبانْي في هذا الصدد:

قالت: «لقد كانت هذه السيدة قاسية جداً في استدعائها: لم تخش —في الواقع— أن توقف بحكم غير عادل ذلك الذي كان خاضعاً لمشيئتها خضوعاً تاماً، والذي أعطته الأمل في حبها بارتباطها معه بقَسَم، ومن غير المسموح لأية امرأة فاضلة مخاتلةُ أحد دون داع. إن العاشق موضوع الدعوى لم يرتكب أي خطأ في مسعاه، بعتابه العادل، وبإثباته بالحجة خطأ الذين شنّعوا على سيّدته. وإذا كان قد ارتبط بقَسَم، فيكون ذلك —في الواقع— قد صنعه للفوز بحبها بسهولة أكثر، وعلى هذا، يبدو من الظلم أن تكون السيدة قد أمرته من ثم بعدم إشغال فكره بذلك الحب».

الحكم الثاني

فارس آخر يتمتع بحنان حبيبة ممتازة، وقد طلب منها السماح له بأن يرتبط بعلاقة حب مع سيدة أخرى. ومُنح الإذن والرخصة، فذهب إليها ومكث طويلاً، إذ ليس هناك عُرف يبعده عن التمتع بالسيدة الأولى. ولكن العاشق عاد بعد مرور شهر إلى السيدة الأولى، قائلاً أنه لم يكن يملك أية حرية مع الأخرى وليس له رغبة فيها، ولكنه كان يريد أن يمتحن ثبات حبيبته فقط. ولكن السيدة طردته لأنه غير جدير بحبها، قائلة له: إن الحرية المطلوبة والمسموح بها تؤيد الحرمان من الحب.

وها هو الحكم الذي رُدّ به على السيدة، والصادر من الملكة إليونور التي استشيرت في هذا الأمر، وردّت بالتالي:

قالت: «معروف جداً في الحب أن العشاق غالباً ما يجاهرون برغبتهم بلمسات الحب الرقيقة الظّريفة، ليستطيعوا إثبات وفائهم وثبات الحبيبة (على حبهم) بطريقة أفضل. إنها تسيء إلى طبيعة الحب نفسه، تلك التي توقف —ولهذا السبب— لمسات حبيبها المعتادة، أو ترفض أن تحبّه، وهذا —على الأقل— برهان واضح على أن العهد الذي وُعِد به قد نُكث».

الحكم الثالث

رجلان متساو يان في كل شيء تماماً: ميلاد، حياة وأخلاق حسنة،... الخ. نقطة واحدة تفرّق بينهما: هي الثروة. ولذا يتردد كثير من الناس حين يقررون أي الاثنين ينبغي أن يكون المفضّل في اختياره حبيباً.

وهناك إجابة —في هذا الموضوع— لكونتيسة مقاطعة شامباني لسيّداتها:

«ليس من الإنصاف أن نزعم أن فقيراً، مؤدباً ونبيلاً، ينبغي أن يكون مفضلاً على غنيّ دون تعليم. بل الأمر على عكس ذلك، إذ أنه لا يفضّل رجل غني ونبيل —دون سبب— على فقير مؤدب إن هو طلب بالحب امرأة ثريّة، إنّ امرأة مفعمة بكل الخير —في الواقع— لأكثر جدارة للارتباط بحبيب فقير من الارتباط بثري فاحش الثراء، لأنه لا شيء ينبغي أن يكون شاقاً على كل الأوفياء مثل رؤية الوفاء مكدراً بظلماء الفقر أو معذّباً ببعض الحاجة.

ومن ثم، فإن من الصواب أن تعظّم امرأةٌ ثرية، إن هي تركت ثراءها جانباً، وبحثت عن حبيب فقير، تستطيع ثروتها أن تسعفه. لا شيء —في الواقع— يبدو فائزاً بالثناء من أحد أفراد الجنس الآخر بمقدار ما يفوز به مَنْ يُعين على حاجات حبيبه بقدر الإمكان. «ولكن، إذا كانت المرأة حزينة بسبب ظلمة الفقر، فأولى لها أن ترتبط بغنيّ لأنه، إذا وجد المحبّان نفسيهما في خضمّ الحاجة، فسيصبح حبهما —بالتأكيد— ضعيف التحمّل. إن الفقر —في الواقع— موضوعُ خجلٍ لكل الناس الأوفياء، لأنه يقودهم إلى كل نوع من التفكير المزعج، ويؤلمهم بشدة ليلاً ونهاراً، وبالتالي يطرد الحب عامةً».

— ولكن، لنفترض أن الرجلين، المتساويين في كل شيء دائماً، وضعا نفسيهما —في نفس الوقت وبنفس الطريقة— في خدمة سيدة، وطلبا بإلحاح أن يكونا محبوبين لديها. وعند ذلك، يُطلَبُ: أي الاثنين تفضّله من أعماق قلبها».

الحكم الرابع

ويُطْرَح على نفس هذه الكونتيسة الماجدة جداً هذا السؤال للبتّ فيه:

فارس أحب سيدته بشكل مبالَغ فيه، وكان يتمتع بحنانها كاملاً، ولم تكن —مع ذلك— تحبّه بعاطفة مساوية. ولقد طلب الفارس منها أن تهجره وتبتعد عنه، ولكن المرأة أرادت أن تحبسه داخل حبها الأول.

وفي هذه القضية، أصدرت الكونتيسة الإجابة التالية:

«من الواضح أن تَشَدُّدَ السيدة غير مؤدب، وهي التي تريد أن تكون محبوبة مع أنها ترفض أن تحبّ هي نفسها، ومن الحمق الإدّعاء بإلزام الآخرين في ذلك».

الحكم الخامس

ها هي قضية أخرى أيضاً:

شاب دون أية أمانةٍ وإخلاص، وفارسٌ زانٍ مليء بالإخلاص، إلتمسا حبَّ السيدة نفسها، ثم يدّعي الشاب أنه أحقُّ أن يكونَ المفضّلَ على الزاني، لأنه، إذا كان قد نال الحب المطلوب، فإنه يستطيع بمثل هذا الحب اكتساب الإخلاص، وسيكون فخراً كبيراً للسيدة إذا أصبح رجلاً غير مؤدب مخلصاً بفضلها.

وقد أجابت الملكة إليونور بالتالي:

«لو أن شاباً عديم الإخلاص استطاع أن يسمو ليصل إلى الإخلاص بفضل سيدة حكيمة، بيد أنّه لا يتصرف نفس التصرف حينما تفضّل امرأة أن تحب عديم الإستقامة والوفاء، خاصة إذا هي طلبت الحب من رجل مخلص بطيء الاستجابة، ومفعم بقيم أخلاقية. ولذا كان من الممكن — بسبب سلوك الرجل غير المستقيم، حتى في حالة وصوله إلى أمور حسنة ومرغوبة — ألاّ تجد عدمُ أمانته أي دواء لإصلاحها، وذلك لأن البذرة الملقاة (ذات) مرة لا تحمل دائماً فاكهة».

الحكم السادس

وتُطْرح — أثناء حكم الملكة نفسها — قضية الحب هذه:

اقترن أحدهم دون علمه بامرأة حامل. واكتشفت الزلّةُ، فطلب منها حريته، ولكن المرأة — بسبب تعلقها بحبه — طمعت بالاحتفاظ به لنفسها، مؤكدة أن الزلّة قد سُمح بها قبل ذلك، إذ أنها لم تكن حينما بدآ يحبان أحدهما الآخر.

ولقد أجابت الملكة نفسها على هذه القضية: (بالتالي):

«إن هذه المرأة تترافع ضد الحق والعدل، وهي التي تسعى — تحت ستار الخطأ — للاحتفاظ بحبِّ فاجرٍ فاسق. ونحن مجمعون — في كل وقت في الواقع — على ذمّ الأعمال الفاحشة المذمومة، التي يقاومها — علاوة على ذلك — القانون الإنساني نفسه بعقوبات شديدة جداً».

الحكم السابع

سيدة — أو فتاة — هجرت عاشقاً ملائماً جداً للزواج منه، و بعد وقت، أرادت أن تختفي مع رجل شريف، وتتوارى عن حب عاشقها القديم وترفض طيبته المألوفة.

ولكن، أعْلنت عدم استقامة هذه المرأة بتوقيف من السيدة ايرمنجارد دي ناربون، وذلك بالشكل التالي:

«إن حدوث رباط الزوجية الطارىء لا ينفي حق الحب الأول، ما لم تتوقف السيدة عن انشغالها تماماً بالحب، وتقرر أنها لن تحب بعد ذلك أبداً».

الحكم الثامن

طلب بعضهم من نفس السيدة أن تبيّن له بوضوح أين يكون شعور الحب أقوى: بين العاشقين أو بين الأزواج ؟

وقد أجابته هذه السيدة جواباً مليئاً بالفلسفة:

قالت: «إن العاطفة بين الأزواج، والحب الحقيقي بين العشّاق ينبعان من طبيعة مخالفة تماماً ولهما أصلٌ بميول مختلفة تماماً. وعليه، فإن أصل الكلمة نفسها المزدوج المعنى يمنع احتمال المقارنة و يقدّمه تحت صور مختلفة. وليس من المستطاع المقارنة بكلمات: «أكثر» أو «أقل» بين أشياء مستخدمة بمعنيين، عندما تتعلق المقارنة بأمر نعتبر أنه قيل بشكل مبهم. فإن مقارنة بهذه الصفة لن تكون لائقة، إذا كان الإسم أبسط من الشيء أو أن القضية أكثر تعقيداً من كيفية التعبير».

الحكم التاسع

طرحت الحالة التالية على نفس السيدة وهي:

هناك سيدة كانت متزوجة من قبل، ومنفصلة الآن عن زوجها بعد أن طلّقها. ولكن ذلك الذي كان زوجاً لها يطلب منها بإلحاح حبها.

وقد أجابته السيدة المذكورة أعلاه (بالتالي):

«إذا كان شخصان مرتبطين برباط زوجي، و بعد ذلك انفصلا بأية طريقة كانت، فإننا نعلن أن الحب بينهما ليس أثيماً، بل إنه فاضل أيضاً».

الحكم العاشر

ها هو رجل حكيم وفاضل التمس حب سيدة. و يأتي بعد ذلك رجل آخر، أكثر نزاهة منه، و يطلب بإلحاح أن يكون محبوب هذه السيدة نفسها. أيهما يُفضَّل على الآخر ليكون محبوباً لها؟؟

وها هي كيفية قضاء إرمنجارد دي ناربون في هذه المنازعة:

« على المرء أن يوافق على الإختيار الحرّ للسيدة في مسألة الحب، والتي تستطيع —إن أرادت هي ذلك— أن تستجيب للطّيب أو لأحسن طامع بها».

الحكم الحادي عشر

عاشق مرتبط سلفاً بعلاقة حب لائقة. التمس بإلحاح شديد حب سيدة أخرى، وكأنه كان خالياً من كل حب. وانقياداً لرغبات قلبه، نال كل ما طلبه تماماً بقوة إصراره. ولكن ثمرة عذابه قد جُنيت، فالتمس ألطاف حبيبته الأولى وفتش عن الشجار مع الثانية. فأي عقاب سيليق بهذا الرجل عديم الوفاء؟؟

وفي هذه القضية، أدلت كونتيسة دي فلاندر بهذا الحكم:

« هذا الكائن الرذيل، الذي أصبح آثماً بخيانةٍ فظيعةٍ أيضاً، يستحق أن يكون محروماً من حب المرأتين، وعليه ألاّ يعلّل نفسه بحب أية سيدة أخرى فاضلة، لأن المرء يرى أنه قد تملكته شهوة عنيفة، وهي عدو الحب تماماً، وذُكِر مثل هذا بوضوح في مذهب لوشابيلان».

الحكم الثاني عشر

فارس عديم الاستقامة تماماً، ولهذا السبب جُمد بالحب من كل النساء، وقد طلب بكل جرأة سيدة قد انتهى بها الأمر معه بأن منحته الأمل. هذه المرأة —بتربيتها الخاصة، وقبلاتها ولمساتها الرقيقة— قد مكّنت حبيبها من واجبه بحيث وصل —والفضل لها— إلى الصلاح والنزاهة الفائضة وللأخلاق الحميدة. وذات مرة —وهو راسخ بثبات هكذا في قوانين الواجب والعفة— قدمت له سيدة أخرى حبها بإلحاح. فرضي الفارس به ناسياً تماماً سخاء سيدته الأولى.

وها هي إجابة كونتيسة دي فلاندر، على هذا الموضوع:

«يجب على جميع الناس الرضى بأن تُحرِّم الحبيبةُ الأولى على حبيبها لمسات كل امرأة أخرى، فهي التي - بدأبها وجهدها في الواقع - قد قادت رجلاً عديم الاستقامة إلى ذروة العفة والأدب والأمانةَ. وهي التي لها الحق والتعويض ضد هذا الرجل، لأنها جعلت من رجل لا نزاهة له - من خلال ألمها وعنايتها بالحبيب - رجلاً فاضلاً ومليئاً بالأخلاقيات».

الحكم الثالث عشر

حبيب سيدة كان قد رحل منذ مدة طويلة من أجل غزوة فيما وراء البحار، وبما أنها لم تعوّل على عودة قريبة له، ولأن الجميع تقريباً قد يئسوا من ذلك، بحثت لها عن حبيب جديد. ولكن كاتم أسرار (نجيّ) الحبيب الأول - وهو يتألم بقوة من خيانةِ السيدة - قاوم الحب الجديد. وبما أن السيدة رفضت أن ترجع لرأيه، دافعت عن نفسها بالشكل التالي:

«إذا كان مسموحاً للمرأة الأرملة التي مات حبيبها، بالحب بعد سنتين من موته، ولسبب قوي جداً، فإن لهذه المرأة الحق فيه لأنها أرملة حبيب حيّ، لم تسعد باستلامها منه لا خطاباً ولا رسالة شفوية منذ وقت طويل، لاسيما وأنه كان لديه فرصٌ متعددة».

وما أطول ما نوقشت هذه القضية، وما يوافقها وما يضادّها، وقد طرحت أمام كونتيسة مقاطعة شامبانيْ للحكم فيها، فختمت المناقشة بالحكم التالي:

« ليس من حق الحبيبة - بحجة غياب الحبيب الطويل - أن تقاطعه، أولاً، وعلى الأقل، لأنه ليس دليلاً على أن حبه قد نقص أو خالف عهد المحبّين، خصوصاً عندما يكون العاشق مبتعداً عنها لسبب ضروري، أو أن غيابه كان لسبب شريف. لاشيء - في الواقع - يجلب سعادة كبيرة لقلب الحبيبة مثل استلامها - من البلاد البعيدة - أخبار مجد وعزّ حبيبها، أو أن يخبرها أحد أن حبيبها سيحظى باعتبارٍ واحترامٍ في مجالس العظماء.

إن مؤاخذته بأنه أهمل إرسال خطابات أو رسائل يمكن أن تفسّر بأنها دليل على فطنته الكبيرة، لأنه لم يكن مسموحاً له أن يستودع سرّه أحداً. حتى وإن كان قد أرسل رسائل كانت فحواها غير معروفة بالنسبة لحاملها، ومع ذلك - وسواء أكان ذلك بسبب عدم أمانة الرسول، أو لاحتمال موته أثناء رحلته - فإنه كان من الممكن أن تشيع أسرار حبه بسهولة».

الحكم الرابع عشر

عاشق فقد — وهو يحارب ببسالة — عينه أو جزءاً آخر من جسده. وطردته حبيبته باعتباره غير أهلٍ لها وقبيحاً، ورفضت منه اللمسات الرقيقة.

وفي هذه الحالة، يمكن أن يُرَدّ على هذه المرأة بحكم مدام دي ناربون، التي أجابت بهذا الشكل:

« كل امرأة تُعتبر غير أهل للشرف إذا هي قررت أن تتخلى عن حبيبها بسبب علّة عادية في حالة حرب، والتي لا تحصل إلا للمقاتل الباسل. إن مخاطرة المحاربين —والحالة هذه— هي التي تحث على حب النساء أكثر وتزيد أيضاً رغبتهن بالحب أكثر.

وعليه، فإن عاهةً تأتي بغتة من شجاعة طبيعية في حالة حرب، ينبغي أن تُنيل المحب عِوَض حب ».

الحكم الخامس عشر

فارس كان يحمل حباً لسيدة، ولمّا لم يكن لديه أية فرصة مواتية للكلام معها، وَكَل أمره —من أجل هذا وبموافقة السيدة— إلى أمين سر، واستطاع كل منهما، عن طريق الوسيط لكل واحد من الاثنين، أين يعرف بسهولة رغبات الآخر ويستأمنه بدوره سراً على رغباته هو؟ وبفضل هذا أيضاً استطاع الحب أن يكون دائماً محفوظاً بينهما وسرّياً. ولكن المستأمَن الذي وافق أن يقوم بدور الوسيط، قصّر بواجبات الأمانة والوفاء، ولعب لنفسه دور العاشق، وراح يتكلم بالحب لحسابه الخاص.

ولقد تواطأت السيدة معه، بفظاظة، على الخداع والخيانة، ووافقته في النهاية على حبه واستجابت لكل رغباته.

وصرّح الفارس المتأثر من هذا الخداع، بكل تفاصيل هذه القضية لكونتيسة دي شامبانيْ، وطلب أن تُدان هذه الجريمة بتوقيف منها ومن السيدات الأخريات. وقَبِل المتّهم تحكيم هذه الكونتيسة أيضاً. وحكمت هذه الكونتيسة —والتي دعت من جانبها ستين سيدة إلى الاجتماع— بهذه القضية الحكم التالي:

« لقد تمتّع هذا العاشق الخائن الذي قابل امرأة أهلاً لمزاياه لأنها لم يكن لديها الحياء بقبولها مثل تلك الجريمة، قد تمتّع —حيث أراد هذا— بحب مكتسب بطريقة سيئة، كما تمتعت هي أيضاً بمثل هذا الحبيب. ولكن، لِيُحْرم كل واحد منهما من حب كل شخص آخر وإلى الأبد، وألاّ يكون لا هذا ولا ذاك مدعوّا —من الآن فصاعدا— إلى مجالس السيدات بصحبة الفرسان، وذلك لأن العاشق حنث بيمين الفروسية، ولأن السيدة تصرفت بشكل مخجل مخالف لحياء السيدات بموافقتها على حب أمين سرّها ».

الحكم السادس عشر

فارس أغرمت به سيدة كانت على علاقة سابقة بآخر، ولقد حظي منها بأمل أن يكون محبوبها بحيث أنها قد وعدت الفارس بأن يكون له الحظوة عندها إن هي حرمت يوماً من حب حبيبها. وبعد ذلك بوقت قصير، تزوجت السيدة حبيبها. وحينئذ طلب الفارس إنجاز الوعد الذي قطعته له، لكن السيدة رفضت ذلك رفضاً باتاً، مدّعية أنها لم تكن خالية من حب حبيبها. وقد أجابت الملكة في هذه القضية بالشكل التالي:

«لن نجرؤ على مخالفة توقيف كونتيسة دي شامبانْي، التي حكمت حكماً شرعياً بأن «الحب الحقيقي لا يستطيع أن يدوم بين الزوجين» كما نأمل من السيدة المذكورة أعلاه أن تمنح الحب الذي وعدت به»

الحكم السابع عشر

أمين سر أفشى —بشكل مُخزٍ وثائق— أسرار وصفاء الحب. وقد طلب كل من تجنّد في «فروسية الحب» أن تعاقب كل هذه الجرائم بقسوة شديدة، خوفاً من أنّ أمرَ خيانات كهذه وأنّ أمثال هذا الغادر —اعتماداً على العفو عن الجريمة— يُصبح أمراً مُعْدِياً. ولقد تقرّر بالإجماع، في ندوة للسيدات في جاسكونيْ وحسب نظام دائم، بأن يُحْرَمَ المذنب من الآن فصاعدا من كل أمل له في الحب، وسيكون محتقراً من الجميع وذليلاً في «مجلس السيدات والفرسان». ولو أنّ سيدة كان لديها الجرأة لأن تنقض قراراتها المزورة بمنحه حبها، فعليها هي نفسها أن تخضع لنفس العقوبة، وألاّ تتعرّض بالعداوة لأية امرأة فاضلة أبداً».

الحكم الثامن عشر

التمس فارس حب سيدة رفضت أن تحبه مطلقاً. وقدّم لها الفارس من ثَمّ بعض الهدايا اللائقة، وقبلتها السيدة بسرور وبسرعة، ولكنها —بالتالي— لم تتلطف أكثر بمنحه الحب وأجابته بالرفض البات. وشكا الفارس أمره، قائلاً إن السيدة —بقبولها الهدايا اللائقة بحبه— أعطته الأمل بأن ليس لديها أي سبب لابتزازه.

وهذه هي إجابة الملكة :

« لو أن السيدة رفضت الهدايا اللائقة بحبها ، أو أنها قبلتها ، فإنها بذلك تمنح حبها لقاء ذلك ، أو أنها تقبل اعتبارها بغيًّا مبتذلة دون أن تشكو» .

الحكم التاسع عشر

ولقد طلب من الملكة أيضاً التالي : أي نوع من الحب ينبغي أن يكون مفضلاً : حب شاب أو حب رجل أكبر سناً ؟؟ ولقد أجابت الملكة برقّة تستحق الاعتبار:

« إن حكمة رجل ونزاهته ، وقيمه الأخلاقية هي التي تقيّم حبه بأنه حسن أو الأحسن ، وليس اعتبار السن . ومع ذلك ، فإننا لو اعتبرنا غريزة الحب الطبيعية ، نرى أن الشباب يرتبطون —مع حرص شديد— بامرأة أكبر سنًّا من فتاة صغيرة في نفس سنهم . ولكنهم عندما يكونون أكبر سنًّا ، فإنهم يبحثون عن القبلات واللمسات عند امرأة أصغر سنًّا أكثر من امرأة أكبر سنًّا . ولكن المرأة على عكس ذلك ، فسواء أكانت فتاة صغيرة أو كبيرة ، فإنها تبحث عن القبلات واللمسات عند رجال أصغر سنًّا أكثر من رجال أكبر سنًّا » .

الحكم العشرون

كما طلب من كونتيسة دي شامبانيْ : «أيّ الهدايا يستطيع العشاقُ تبادلها . وقد أجابت الكونتيسة على هذه المسألة بالتالي :

« ها هو ما يستطيع العاشقون قبوله عن طيب خاطر: منديل(١) ، أوشحة للشعر، تاج من ذهب أو فضة ، مرآة ، حزام ، محفظة ، خيط ملابس ، إسفنجة ، فرو لليدين ، قفّاز، خاتم ، عطور، أواني ، وأطباق ... الخ » .

و بشكل عام ، فإن كل الهدايا الصغيرة البسيطة تُسْتَخدم في زينة الجسم وفي الملاحة الخارجية أو إعادة ذكرى العاشق ، و بشرط أن يكون قبول الهدية خالياً من كل شك بالبخل .

وهذا —مع ذلك— درس آخر يتعلق بفروسية الحب : —على كل من استلم خاتماً كشهادة حب ، أن يلبسه في الإصبع الصغيرة لليد اليسرى و يضع لؤلؤة الخاتم محوّلة إلى داخل اليد ، في اليد اليسرى ، لأنها الأكثر حفظاً من كل مخالطة مخالفة للأدب : وهو في الإصبع الصغيرة أحسن منه في الأصابع الأخرى ، وذلك لأن موت أو حياة الرجل يكمن في ذلك .(٢)

(١) لتنشيف الوجه (المؤلف) .

(٢) وهذا في اعتقاد بعضهم ، وإن كان خرافة .

الحكم الواحد والعشرون

رسالة موجهة إلى كونتيسة دي شامباني

إلى الماجدة والحكيمة ماري كونتيسة دي شامبانيْ، والسيدة النبيلة ف **F**، والكونت ب **P**، تحية وسعادة!!

هناك عرف قديم يبيّن لنا بوضوح أن مفعول العدالة ينبغي أن يكون مطلوباً لا سيا حيثما تكون الحكمة نفسها معروفة علانية ليكون لها المنزل المختار، كما ينبغي —وفقاً للصواب والحق— البحث عن الحقيقة مباشرة من المصدر زيادة على ذلك، وذلك أولى من الذهاب لاستجداء الأجوبة العديمة الفائدة من الجداول الصغيرة. ولن يستطيع فقر شديد جداً —في الواقع— تقديم الخير الكثير لأحد، كما أنه من المستحيل إطلاقاً —بالنسبة للسيد الحزين المكدّر من شدة العوز— أن يغدق المال على الإقطاعي التابع له.

وبناء عليه، فقد كنا جالسين يوماً تحت ظل شجرة صنوبر ذات ارتفاع وعرض مدهشين، بعد أن كنا قد استسلمنا للحب، وانهمكنا في البحث في مشكلة مضاعفة، وانتهينا من مناقشتها بإشغال فكرنا وقد أنهكنا أنفسنا بملاحظات صعبة— وهي:

١ — هل يستطيع الحب الحقيقي أن يجد مكاناً بين الأزواج؟؟
٢ — هل ينبغي أن تُستحسن الغيرة بين المحبّين؟؟

وقد قامت مناقشة كبيرة بيننا على هاتين المشكلتين، واعتمد كل واحد منا نحن الاثنين في رأيه على أدلة معقولة، ولم يستطع أي منا أن يرضى ببحث الآخر، ولا أن يتجه نحو الأدلة المتقدمة. ونحن نطلب حكمكم أيضاً في هذا الجدال، ونرسل لكم البراهين المقامة كاملة لكل فريق —بعد اختبار الحقيقة بدقة— لذكر حلٍ مناسب لمناقشتنا ولإخماد اختلافنا بخاتمة مليئة بالعدل: لأننا نعرف معرفة أكيدة واضحة أنكم قد تقاسمتم الحكمة الزائدة كما نعتقد أن عدالتكم لا تخدع أحداً أبداً.

وبناء عليه، فإننا نتلمس بإلحاح شديد حُكماً من سموكم دون جدال. ونرجو من أعماقنا بهذا المعروض الموقّر أن يُدْرس اختلافنا المحفوظ لديكم بعمق، وأن يحمل لنا حكمٌ عادل يصدر برأيكم السديد النتيجة دون تأخير لتحكيمكم في هذه القضية».

رَدّ الكونتيسة

— إلى الحكيمة النبيلة السيدة ن.... وزوجها الماجد الكونت ن....، والكونتيسة م... دي شامبانْي، سلام!!

كما أننا أخذنا نستمع للطلب العادل من الجميع، وكما أنه منَ اللائق ألاّ نرفض نُصْرَتنا لأي واحد ممن يطلبون أشياء عادلة، خصوصاً عندما تدفعهم الحيرة في مسائل الحب إلى الإلتجاء إلى تحكيمنا، فإن شرح رسالتكم جعلنا نعرف المسألة بوضوح، وبناء عليه، فلن نتأخر كثيراً (في الرد)، ولكننا —وباهتمام عاجل— نودّ إعطاءكم انطباعنا.

إن رسالتكم قد بيّنت لنا أن هناك نقاشاً دار بينكم حول مسألة معرفتكم:

١ — ما إذا كان الحب يستطيع أن يجد مكاناً بين الأزواج.

٢ — ما إذا كانت الغيرة بين المحبين مستوجبة للذم.

وحول هاتين المشكلتين، بقي كل منكم متمسكاً بموقفه، محارباً فكرة الآخر، ولكنكم رجعتم إلى حكمي كي أقرر أيًّا من الاثنين على حق.

ولذا فقد درسنا بحثيكما بانتباه شديد، وأفضت بنا تحرّياتنا إلى الحقيقة بكل أشكالها، وهاهو حكمنا الذي نختتم به المجادلة:

نحن نقول ونؤكد —في مُفاد الحضور— أن الحب لا يستطيع أن ينشر حقوقه بين الأزواج. وأن المحبّين —في الواقع— يتآلفون طوعاً واختياراً، دون أن يُجبروا بأي التزام: لكن الأزواج —على العكس من ذلك— ملزمون من خلال واجبهم بأن يخضعوا أهواءهم بالتبادل ولا يمتنع أحدهما عن الآخر أبداً.

فإذا وهب الأزواج —من جهة أخرى— بعضهم بعضاً اللمسات بصورة المحبّين، فإنه لا أحد منهما يشعر برغبة في أن يُمنح أكثر، ولا يبدو أنهما يحظيان بأكثر من الحصول على حق سابق.

ولكن تأكيدنا يستند على سبب آخر أيضاً:

فهناك قاعدة حب تنبئنا أن أيّة زوجة لن تستطيع أن تحظى بمكافأة ملك الحب، خارج روابط الزواج، إن لم تخدم نظام فروسية الحب.

وتشير قاعدة للحب أنه لا أحد يستطيع أن يكون ممنوعاً من أن يكون محبوباً من شخصين معاً.
وبالتالي، فإنه من العدل أن نقول بأن الحبّ لن يقدر أن يبسط حقوقه بين الأزواج.

كما أن هناك سبباً آخر يبدو مخالفاً لهذا: وهو أنه لا ينبغي أن يكون بين الأزواج غيرة حقيقية، وأن أي خطأ (من المحب) لا يستطيع به امتلاك حبيب حقيقي، وذلك ما يشهد به قانون حب يقول: «مَنْ لا يكن غيوراً لا يستطع أن يحب».

إن هذا الحكم الذي أجبنا به مع حذر شديد، والذي اعتمد على رأي عدد كبير من السيدات الأخريات، سيكون بالنسبة لكم حقيقة ثابتة وأكيدة.

حُرر في سنة ١١٧٦م (كونتيسة دي شامبانْي كان لها من العمر في ذلك الوقت ٣٨ سنة)، في اليوم الثالث من أول شهر مايو.



الفصل السادس
مجالس الحكم

رأينا كيف اعتمد رينيوارد —بدقة— على أحكام الحب الذي تضمّنها كتاب لوشابيلان، لدعم وجود محاكم نسائية حقيقية أصدرت فتاوي حقيقية ألّفت حسب النظام القضائي للعصر، لحساب دعاوي حقيقية بين عاشقين. وقد رأينا كذلك النص الكامل لكل الأحكام سابقة الذكر، والقانون الذي كانت الأحكام تطبيقاً له. و يبدو أننا متفهمون أحسن الآن لمناقشة وجود وطبيعة مجالس الحب.

و يبدو أن وجودها غير قادر على أن يكون موضع إنكار. ولقد كتب لوشابيلان في نهاية بحثه عن فن الملاطفة (الغزل)، إلى جوتييه الصغير ما يلي:

« ها هي الأوامر ملخصة باختصار لك. فإذا سمعتها بأذن صاغية، وإذا أردت وضعها موضع التنفيذ، فسيحكم عليك بأهلية المناقشة داخل مجلس الحب». كما وجدنا، على مدى المؤلّف، تنوبهات أخرى مختصرة أيضاً، دون اعتبار التلميحات العديدة لمحاكمات النساء.

هذه —على وجه الخصوص— طبيعة وأعمال المجالس النسائية التي صنعت موضوع المناقشات العديدة بعد ظهور كتاب «فن الحب» **De arte amandi**

إن أول نقد جدّي هو نقد فردريك ديز، وهو أديب ألماني وأستاذ في جامعة بون، والذي يعتبر كمؤسس لعلم اللغات الروماني. ومنذ عام ١٨٢٥م وديز يسعى في كتابه «محاولة عن مجالس الحب» لدحض برهنة رينيوارد كلها. وقد قال باختصار أنه بدراسة كل منتخبات الشعراء التروبادور البروفانسيين المذكورة في هذا المؤلّف عن قرب، لا يستطيع المرء الاحتفاظ بواحدة منها تؤيد النهايات التي يراد استخراجها. ولا تضم واحدة من «محاولات أو فرق - اللهو **Jeux-partis** » العديدة التي نجدها عند الشعراء التروبادور البرهان الذي خضعت له أخيراً القضيةُ التي بحثها رفيقان ليُفْتَى بها في مجلس النساء. ولكنه من المحتمل، أن مواضيع الملاطفة (الغزل) كانت بالضرورة محدّدة، وكان يعالج بعضَها شاعران في وقت واحد في «مجلس السيدات». وفي النهاية، وحسب قول ديز، فإن الأحكام المذكورة في عمل لوشابيلان كانت فقط البرهان الذي كان نموذجاً لما يُطلب من النساء المشهورات، اللواتي كان أزواجهن أمراء ذوي سلطة، وكان لهن رأي في بعض قضايا «الملاطفة»،

ومن ذلك مسألة ما إذا كان الحب الحقيقي على سبيل المثال يستطيع أن يكون بين الأزواج. ولكن لا شيء يثبت أن هذه المناقشات والأحكام كانت شيئاً آخر غير نماذج لهو للمجتمع، كاللهو الشعري للشعراء التروبادور. ولا شيء يثبت أنه قد كانت هناك محاكم نسائية حقيقية، صارت الفتوى لبعض الحالات الحقيقية فيها — من ثم — سلطةً تعمل على الخضوع لعقوبة عملية غير معقولة.

ونجد نفس السفسطائية الارتيابية في فقرة من «نشرة باريس سنة ١٨٥٣م»: تحت عنوان «من الحب والمشاعر الشريفة». ويعتمد مؤلِّفه ڤاليه دي ڤيرڤيل **Vallet de Virville** الذي كان قيّماً للمحفوظات في الأوب **Aube** ثم أستاذاً في مدرسة دي شارت، يعتمد على دليلين أساسيين، ويبدو الأول قوياً لا يمكن إنكاره: إذ يقول: ليس هناك نص تاريخي يدعم النتائج التي تقدمت على هذه المحاكمات المزعومة. وفي الحقيقة أنه كان سيكون غريباً مذهلاً ألاّ يكون نظام هذا النفوذ موضوع تنويهٍ محدد لدى الشعراء أبداً، أو عند مؤرّخي الحوادث اليومية للعصر. ويبدو لنا الدليل الثاني أقلّ قوّة، إذ يقول: إن الكنيسة صاحبة السلطة القوية في العصور الوسطى، لم تكن تسمح بالنظام، وخصوصاً هيئة مجالس الحب هذه التي تناقض كل خلق ديني.

ويبدو لنا أنه قد نُسي أن الكنيسة لم يكن لديها نفس الموقف المتشدد على هذه القضايا مثلما هي الحال في يومنا هذا. ويعلم المرء (أيضاً) الضرر كله الذي جناه جريجوار السابع في تطبيق إصلاحاته الكبيرة، وخصوصاً ضد زواج القساوسة. كما يعلم المرء أيضاً أن الأساقفة في الإكليرك العالي لم يكونوا يعيشون على طريقة أخرى غير طريقة السادة العظماء. ويفسر ذلك — على الأقل — التساهل الذي يستطيع المرء أن يجعله برهاناً على نظام لم يعتبر إذذاك غير أخلاقي. ومهما يكن من أمر، فإن ڤاليه دي ڤيرڤيل يختتم كلامه أيضاً بإسقاط مجالس النساء من ندوات كانت تناقش حالات متخيّلة، وليست حالات حقيقية، وإنما كانت بقصد اللهو فقط.

وكان هذا أيضاً رأي لويس باسي **passy**، وهو رجل سياسي وصاحب دستور، وكان في دراسته نفس المسألة عام ١٨٥٨م قد نفى بصراحة الأنظمة المزعومة للمحاكمات العاطفية في العصور الوسطى، شأنها شأن الأساطير. فإن وجدت — (حسب رأيه) — مجالس الحب وهي غير مشكوك فيها، بعد كتاب «فن الحب»، فإن المرء يستطيع أن يفترض بعدها أن هناك مجتمعاً شيّقاً، مجتمع ملاطفة أرستقراطياً، حيث يستطيع المرء أن يرى — سلفاً — أصل مناقشات المجاملة (الغزل) التي اتخذت مكانها داخل صالونات النساء ذوات التصنع في (أحاديثهن وأخلاقهن) في القرن السابع عشر.

ولكننا نعود مع ي. تروجل إلى الفكرة الأولى لمجالس الحب. ففي بحث للدكتوراه نوقش عام ١٨٨٨م في كوبنهاجن، أخذ تروجل بفكرة رينيوارد في الواقع، وهو في الحقيقة أكثر اعتدالاً، معتمداً على كتاب «فن الحب **De Art Amandi**» وعلى نصوص أخرى من نفس العصر معاً.

و يقرر تروجل في دراسته لأحكام السيدات العظيمات في نهاية القرن الثاني عشر أن بعضها كانت بينهم بل معظمها تنبثق من القضايا العامة حول مذهب الحب العفيف، كما كانت بعض المواضيع هي نفس المواضيع التي كانت مادة المناقشة في المحاورات الشعرية (١) للشعراء التروبادور. هذه لاشك كانت وسائل اللهولاغيرها في المجتمع. وهذه هي موضوعات المحاكمات: الأول: «خضوع مطلق وأعمى لكل أوامر السيدات»، الثالث: «لائحة الحظ في الاختيار بين طالبي الزواج من الاثنين المتساويين في كل النقاط الأخرى تماماً»، السابع: «التزام سيدة عقدت زواجاً مع حفظ حبها للحبيب القديم»، الثامن: «سموالحب بين الحبيبين واستعلاؤه على الحب بين الأزواج»... الخ.

ولكن تروجل يعتقد أن هناك غيرها من الموضوعات التي سُجّلت عن حالات حقيقية. وأنه كانت لكل أربعة من بينها على الأقل، مجادلات ومناقشات حقيقية بين المحبّين الذين قرّروا في النهاية أن يعرضوا أمرهم على محكمة السيدات:

- **الحكم الثاني عشر:** فارس رحل في غزوة لما وراء البحار، ولم يرسل أخباره بعدها، وبحثت سيدته عن حبيب آخر، ولكن كونتيسة دي شامبانْي خطّأتها وألزمتها. بحفظ الحب الذي كان يجب أن يبقى للفارس الغائب.

- **الحكم السادس عشر:** سيدة على علاقة سابقة، وعدت فارساً بالوصل في حالة ما إذا فقدت حبيبها الأول. ثم تزوجت من حبيبها، ورفضت اتخاذ الفارس الثاني حبيباً. ولكن ملكة فرنسا جعلت عليها من ذلك واجباً، معتمدة على «توقيف» سابق لكونتيسة دي شامبانْي، والذي بموجبه لا يمنح الزواج الحب الحقيقي، و بالتالي لم يسامح السيدة بتمسكها بوعدها.

- **الحكم الثامن عشر:** سيدة كانت ترفض دائماً وصال فارس، مع أنها قبلت منه الهدايا التي ربطته بها. وقد أجابت الملكة المستشارة بأنه على السيدة أن تلتزم بحبها أو تصله أو تعيد إليه الهدايا، تحت طائلة عقاب يعتبرها كبغيّ مبتذلة.

- **الحكم الواحد والعشرون:** عاشقان، ف... F سيدة نبيلة، وكونت ب P .... يطلبان من كونتيسة دي شامبانْي ما إذا كان الحب يقدر أن يكون بين الأزواج. وهذه هي الرسالة التي عرضناها تامة، كما عرضنا ردّ الكونتيسة الشهيرة عليها.

وقد اختتم تروجل كلامه بقوله: «ينتج من كل هذا أنه —على الأقل في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر— قد كان هناك عادة بين المحبين، عندما تنشأ بينهم عقبات، وهي أن يوجهوا رسالة إلى

(١) نوع من المحاورات الشعرية يعارض الشاعر التروبادور فيها الشاعر الآخر في موضوع مطروح سلفاً، وكان ذلك في العصور الوسطى.

بعض السيدات المحددات ليطلبوا منهن حكمهن في المسألة، إن كانت هؤلاء السيدات ير ين في ذلك شرفاً يقدمهُ المرء لهن، ودعون إلى اجتماع يختبر الحالة و يعطي الرأي، حين يكون هناك مجال، فيما قضت به واحدة من السيدات بل أكثرهن كفاءة دون شك حسب القوانين، ثم أشركت به كل الأعضاء أو قضت به في حضورهن».

إن هذا ليس رأي جاستون باري، الأكثر سموًّا من قانونيينا الرومان، والذي يرى أن نتيجة تروجل غر يبة. ولا شيء حسب رأيه يسمح بتأكيد أن هذه الأحكام الأربعة نفسها قد سُجّلت عن حالات حقيقية وأنها لم تكن — كالأحكام الأخرى — لهواً خالصاً للروح.

و يكمل: ما الذي يمكن — من جهة أخرى — أن يكون القيمة لحُكم لا تكون العقوبة فيه مطبّقة؟؟ إن هذا والحالة هذه هو حال أحكام الحب. وإن واحدة من هذه القواعد الأساسية للحب العفيف هي في الواقع الحذر والكتمان، فإذا كان قد ذكر اسم فارس محكوم عليه أن يكون محروماً من حب كل السيدات الوفيات فيما بعد، فإنه، والحالة هذه، لا يمكن أن يكون ظاهراً مكشوفاً، إذ كيف كانت هؤلاء السيدات يستطعن معرفة ما إذا كان ذلك (الحكم) يخصّ هذا الفارس، وما إذا كان ينبغي لهن أن يحكمن بعدم صحة الدعوى في مجازفاته لديهن؟؟.

« كيف ينفّذ الحكم حيث يكون المذنبان محرومين من الحب ومنفيين من كل مجتمع طيب، إن كان الشرط الأول للسر مفروضاً على الأعضاء في حالة حضورهم إلى القضاة؟؟».

وقد حاول تروجل أن يجد، خارج كتاب فن الحب **De Arte Amandi**

نصوصا أخرى تثبت وجود محاكمات الحب هذه، لكنه لم يجدها لا في مؤلفات الأخلاقيين ولا عند الوعاظ الذين كانوا يحاربون — مع ذلك — الرقص وأعياد مباراة الفرسان(١) والأغاني الدنيوية. ولقد أشار إلى ثلاثة نصوص، ولكنها — حسب رأي جاستون باري دائماً — لا تبدد أكثر من أن أحكام الحب تدين حالات حقيقية.

١ — رواية ميروجيز دي بورتليجيه، التي تحكم فيها السيدات في بلاط آرثر، وتحت سلطة الملكة جينيفر، بأنّ ميروجيز يستحق حب ليدون الجميلة أكثر من جورفان كادرو.

٢ — هناك قطعة من شعر ألماني في سنة ١٢٩٨م، تقرر فيها السيدات والفرسان المدرّبون في الحب أن على السيدة أن تهب الثواب المرجو لفارس قد خدمها زمناً طو يلاً.

٣ — في قصيدة «مجمع ريمير مونت (٢)»، وهي من الشعر اللاتيني قيلت في نهاية القرن الحادي عشر

(١) عيد عسكري.

(٢) مجمع أساقفة.

أو بداية القرن الثاني عشر، يناقش مجلس الراهبات الصغيرات المزايا الخاصة لرجال الإكليرك وفرسان الحب، حيث يأمر «الكاردينال المتسلط» بتفضيل الإكليرك على الفارس نهائياً.

فهل يستطيع المرء أن يؤكد بجدية أن مجمعاً كهذا قد وُجد؟؟ ألا ينبغي بالأحرى رؤية لَهْو الإكليرك الذي كان عليه أن ينتصر لنقابته؟؟

هذا هو البحث الذي لم ينقطع جاستون باري عن إثباته: أولاً، في مقالة بجريدة علماء ١٨٨٨، ثم في عدة مقالات في النشرة المسماة «رومانيا». إن الأوهام -بالنسبة له- تثبت محاكمات الحب المزعومة فيها «الذوق الذي كان لدى مخيّلة العصر الوسيط فقط، وذلك بالنسبة لبعض الكوادر والصيغ، وعلى وجه الدقّة، بالنسبة لمناقشة البحث بصورة مجادَلة، وهذا ما يقود -طبيعياً- إلى صيغة الجدال القضائي مع مرافعات، وأحكام وتوقيفات».

كما كان هذا الأمر نفسه بالنسبة للّهو الشعري الذي كان موضوع الشعر الحواري Tenson فيه وفي «فرق اللهو» عن الحب عامة: «وقد كان طبيعياً جداً أن كانت النساء -في حضورهن للتسلية التي صنعت مجادلات الملاطفة هذه- يدعون للتحكيم فيها(١)، ونرى في الواقع أكثر من مرة سيدات يشار إليهن كمحكّمات في الشعر الحواري».

ولقد وجب أن يكون هذا نفسه بالنسبة لِلَهو المجتمع الدنيوي هذا، والذي صنعته «مجالس الحب». وعلى قدر ما كان يعظم دور المرأة في الأوساط المجاملة، كان لهواً للفرسان الغزليين بأن يخضعوا لاحتياجات زوجة صاحب الإقطاعة.

«عندما كان مسموحاً للحب أن يكون فناً مثل الحرب، فضيلة اجتماعية مثل الفروسية، علماً مثل الفلسفة الكلامية، وأن يكون له قوانين وحق، حَدث -وهذا أمر طبيعي- أن عُدّ بعض الناس على بصيرة من أمرهم وأن فتاواهم خلقت هناك سلطة ليست بين المحبين فحسب، ولكن بين هؤلاء الذين يريدون معرفة قواعد الحب العفيف المعقدة بعمق، وكما يقول أندريه لوشابيلان «حذق الحب العفيف **artem honesteamandi**».

ويدرك المرء أن النساء مبتدعات حقيقيات، أو على الأقل، مُلهمات لذلك العلم الجديد، يرغبن ويتمسكن بشدة بأن يبدين أنهن بهذا يتمتعن بكل الرقّة والنعومة. كما يدرك المرء أن نساء السادة أصحاب السلطة كان لهن التأثير المعروف، بفضل اختلاطهن بالشعراء التروبادور: برنارد دي ڤينتادور

(١) في الشعر الحواري وشعر فرق اللهو سابقة الذكر.

الذي عاش طويلاً قرب أليونور داكيتانيا، في فرنسا مثلما عاش في انجلترا. وكان بيير روجييه يغني لزوجة الڤيكونت إرمنجارد دي نار بون. وكونون دي بيثون الذي تردد على بلاط ملكة فرنسا أليز و بلاط كونتيسة دي شامبانْي، وفي النهاية، «أبو الرواية الفرنسية» كريستيان دي تروا الذي كتب «لانسلو» بطلب من الكونتيسة ماري دي شامبانْي. إن كل هؤلاء النساء، اللواتي افتخرن بالشعر وأدب المعاشرة، قد أضفن إلى شرف مكانتهن الإجتماعية السامية شرف علمهن بموضوع الحب الذي كن يتمسكن به أكثر فأكثر دون شك.

« وعلى هذا المنوال —يقول جاستون باري— كانت أسماء السيدات العظيمات التي أشار إليها لوشابيلان هي أسماء حاميات علم العشق الأهم. ولقد كان بلاط إليونور —دون شك— نموذجاً يقلده الجميع بحرارة، وكانت السيدات العظيمات الأخريات يطمعن بشرف أن يصبحن طبيبات وفقيهات في الحب.

«فكانت تُطرح عليهن نقاط مذهب أو مواد متخيّلة، وكن هن يقدمن لها الحلول التي تُجنى بعناية، كما كنّ أحياناً —وقبل إعطاء ردّ الحكم— يستشرن النساء الموجودات حولهن، وكان يحدث «كما وقع مرة في جاسكونْي» أن يتخذ اجتماع للسيدات بالجملة فتوى يُعطى لها نفس العنوان الصحيح لكلمة «نظام».

« وتأسس كذلك قضاء اعتمد على سلطة الأسماء الماجدة، إلى جانب قوانين أساسية ألهمها إلٰـه الحب نفسه فارساً من بريتون.

« وشيئاً فشيئاً، تبلورت الفكرة التي كان ينبغي أن يُلجأ بها إلى حكم السيدات في المشاكل العويصة لحق العشق، وتبعاً لهذه المعلومة، رسمت طريقة المحاكمات التي كانت القاعدة الأولى فيها —طبيعياً— عدم عرض حالتهم إلاّ عن طريق وسيط وأن تبقى أسماؤهم مستورة بعناية.

«وإن كان هناك أشخاص مرتبطون حقيقة برباط غير شرعي (لا يتعلق في الواقع بحب آخر) لم يُخضعوا حدثاً مختلفاً إلى حكم من هذا النوع (ماعدا —ربما— لبعض المناقشات عن نظرية الحب، كما في «رسالة إلى ماري دي شامبانْي»)، فإن هذا الأمر ليس له أي أساس من الصحة، لأسباب من العبث تحديدها.

« وسأقول أيضاً أنه إذا كان اختلاس منصب هذه السلطة ضد الأفكار الأساسية للحب في القرن الثاني عشر مباشرة، فلْيُقَلْ كذلك أن ذلك شرعي في علاقات المحبين. وإذا كان هذا الحب، في الواقع، لا يستطيع أن يكون في الزواج، فذلك لأن المحبين يتبادلون كل شيء بحرية وطواعية.

وإذا أجبرت امرأة – والحالة هذه– عن طريق «توقيف الحب» على أن تمدّ يدها إلى حبيبها الذي صدّته، وكانت أقل حرية من زوجة تجاه زوجها، وإذا استمتع العاشق بهذه الوسيلة بالحظوة، فإنه سينقد بغير اختياره كل قواعد الحب النزيه الطاهر دون شك».

وبناء عليه، فإن مجالس الحب قد وُجدت حقيقةً. ولكن ينبغي ألاّ نرى فيها – كما اعتُقد ذلك طويلاً– محاكمات حقيقية حيث تصدر النساء عقوبات حقيقية ضد المحبّين المذنبين. لقد كان ذلك تسلية للمجتمع، حيث كانت النساء الشهيرات المقبولات كصاحبات إقطاعات من قِبَل الفرسان الغزليين، يُنعمن على الرجال –من أجل اللهو– بقواعد للسلوك، مطابقة لقانون الحب المتغلغل في أخلاق هذا المجتمع الغريب.

وكانت هؤلاء النساء اللواتي ينظّمن ما نسميه اليوم «العالم **Le monde** » أقلّ من أن يَصلن إلى خلق أو جعل أحدٍ يقبلُ فكرة الحب المعقّد الرقيق، المؤسس على عبادة المرأة وسموها، والتي تستحق أن تدفع الرجال إلى التطور في الفضائل الاجتماعية الأكثر نبلاً ليستحقوا حبها.

وهذا بالضبط مذهب الحب الذي سنجده الآن كما سنجده في شعر الشعراء التروبادور وكما هو في روايات كريستيان دي تروا أيضاً.





الفصل السابع

الشعر العاطفي للشعراء التروبادور

١- الشعراء التروبادور

إن صورة الشاعر التروبادور المحببة إلى الشعب هي في ذهن الجميع، حيث يسير من قصر إلى قصر، وآلته الموسيقية «ڤييل **Vielle** » تحت ذراعه، منشداً حبه لصاحبة القصر النبيلة. وقد كان من الصعب شرح كيفية ولادة هذا الشعر الغرامي في العصر الوسيط وتحت أي تأثير نشأ في فرنسا. كما كان من الصعب أيضاً شَرْحُ لماذا نشأ في ذلك الوقت بالذات وفي هذا الإقليم.

لقد وجد في كل زمن وفي كل البلاد مختصون بإلهاء الناس، و يعرف المرء دور البهلوانات والممثلين الهزليين والمضحكين(١)، الذين كانوا ينفّسون عن المدعوين الرومان أثناء تناول الطعام. وكان المشعوذون في العصر الوسيط خلفاً لهم، ولكن مهاراتهم وقرائحهم كانت أكثر تنوّعاً. وكان المشعوذون أو الشعراء الجوّالون **menestrels** (لأن الاصطلاحين كانا يعنيان نفس الشيء حتى القرن الرابع عشر) مطربين وموسيقيين جوّالين، يذهبون من قرية إلى قرية و يقفون سواء في مكان عام أو على أبواب القصور. كما كان المشعوذون والبهلوانات، سواء أكانوا عارضي دببة أو مروّضي كلاب مدرّبة، بعد هذه الألعاب المضحكة(٢) المخصصة لجذب الجمهور، كانوا يحكون القصص أو يغنّون، مصطحبين آلة موسيقية تعزف المقطوعات التي تبهج الجمهور أكثر: مقطوعات من أغاني الفخر والمآثر في العصر البطولي، وأغاني حب بعد ذلك بقليل. وكان المرء يرى هؤلاء أيضاً في كل الأعياد، العسكرية(٣) والإصلاحية، حيث كان حضورهم ضرورياً. وكانت الأغلبية بينهم تغتبط بغناء مقطوعات ألّفها

---

(١) فئة من المهرجين كانوا يضحكون الناس بطرائف غير مؤدبة في غالب الأحيان.

(٢) **Parade** نوع من الألعاب المضحكة يقوم بها مشعوذون على باب مسرح أو غيره لجلب الجمهور.

(٣) يتبارى فيها الفرسان.

غيرهم، والتي تلقّوها في مدارس المشعوذين: وفي الواقع أنه خلال الصوم الكبير **careme** (١)، أي خلال الفترة التي كانت الكنيسة تمنع فيها مهنتهم، كانوا يذهبون لتجديد وتحديث معلوماتهم الإخبارية والقصصية. وكان أغلبيتهم شباباً صغاراً كانت أخلاقهم المتساهلة موضوع نقد رجال الإكليرك العنيف.

ومع ذلك، فقد كانت للمشعوذين قرائح كافية —خاصة في وسط فرنسا— لإضافة شيء من فكرهم الخالص إلى معلوماتهم القصصية الإخبارية التي درسوها. وقد تخلّى الكثيرون منهم عن الشعوذة والحركات الفكاهية المسلّية المعتادة تماماً، ليؤلّفوا هم أنفسهم أشعاراًبكلماتهم وموسيقاهم. هم هؤلاء المشعوذون القادرون على إيجاد أغانيهم الخاصة بهم والذين أصبحوا فيما بعد الشعراء التروبادور وسط فرنسا، الإخوة الكبار للشعراء التروڤير في شمال فرنسا. ولقد كان التروبادور —بناء عليه— أعظم اجتماعياً وثقافياً من المشعوذين. كما كان الكثير منهم أمراء، وهذه حال أقدم الشعراء التروبادور الذين عرفناهم، وهو جيوم التاسع دوق أكيتانيا، الذي كتب في بداية القرن الثاني عشر، إلى جوفري روديل، أمير دي بليه، وغيره أيضاً.

— كيف وصل الشعراء التروبادور إلى عدم تأليف شيء غير أشعار الحب؟ ذلك لأن الحب، في الواقع، هو موضوع معظم الشعر البروڤنسالي ليس السبب الوحيد في ذلك هو تأثير الوسط، والمناخ، والشمس، ولا أيضاً حالة الطقس في الجنوب. و ينبغي أن نبحث عن ذلك بالأحرى صنيع التروبادور الذين كانوا يبحثون أكثر فأكثر عن العيش داخل القصر نفسه أطول مدة ممكنة، وفي بلاط بعض الشخصيات المهمة التي يريدون أن يحظوا بحمايتها. وعلى هذا، فإن حياة القصر في وقت السلم متساهلة بما فيه الكفاية. في وسط كان الفراغ يضع —يومياً— صاحبة القصر وبناتها، والسيدات اللواتي كن حولهن مع الشباب الذين لم يكونوا مشغولين بالصيد أو هوس السلاح، فكان من الطبيعي أن يضع الرجال أنفسهم —حين يكونون شعراء— في خدمة غناء الجمال في أشعارهم، وفضيلة هؤلاء السيدات.

لأنْ يكون هذا الحب مخلصاً أو لا، فإن هذا الأمر لا يهمنا أبداً هنا. بيد أنه مما يلفت النظر أننا نجد عند كل الشعراء نفس الأحاسيس، ونفس المواقف، ونفس الموضوع، كما سنرى ذلك فيما بعد. وتثبت هذه الهويّة —على الأقل— جانباً صناعياً أكيداً واصطلاحياً في هذا الشعر. ولكن ذلك يتعلق بالفكرة نفسها التي اعتادوا عليها في دَوْرهم دون شك: وهو أن يحبّوا، وهذا لا يدفع، بالنسبة لهم، إلا على أن يُغَنّى حُبهم. ونلمس هنا —وفي هذه النقطة المهمة— نظام الإقطاع الغريب هذا. فالفارس مِلْك لصاحب الإقطاعة دون تحفظ، والذي يمنحه مقابل ذلك مساعدته وحمايته. والشاعر التروبادور مِلْك للسيدة دون تحفظ، وهو بالنسبة لها صاحب إقطاعة ملتزم بمعاونة سيده: وهي تمنحه المساعدة والحماية

(١) سلسلة مواعظ كانت تقام في الصوم الكبير أو الأربعيني عند النصارى.

في مقابل خدمته العاطفية أيضاً، فتصبح الابتسامة بالنسبة له أحسن عطيّة حرب guerre-don ، وأحسن أجر. وستكون هذه كافية لإعطائها لهذا الذي وهبها سعادة هذا الحب الذي جعله أهلاً لكل شيء، وليسلك سلوكاً حسناً و يظل جديراً بحب سيدته.

و ينبغي، من جهة أخرى، أن يكون هذا الحب النقي والمثالي كافياً لكل الشعراء التروبادور. وتبين لنا دراسة تاريخية للشعر البروڤنسالي قام بها أندر يه جونوروا بالتحديد تطوراً محسوساً جداً وسريعاً جداً نُقِل من الحب الغالي(١) الشهواني في القرن الثاني عشر إلى الحب العفيف والمثالي الذي تكلمنا عنه.

ولنفتح عمل أول شاعر تروبادور، جيوم التاسع دوق أكيتانيا والذي كتبه بين ١١٠٠-١١٢٧م. عن الإحدى عشرة قطعة التي أدركناها، وستة من الشعر الخليع الفاحش، والذي عكس جيداً الأخلاق المشينة لدون جوان هذا، الفاسق المحروم(٢) مرات عديدة، والذي كان يُسرُّ حين يقول أبياتاً مع رفاق الفجور. وهو يتكلم فيها عن المرأة بنفس الخشونة التي يجدها المرء في الحكايات المنظومة «الفابليو»، وبعبارة لا يمكن ترجمتها أحياناً بالنسبة لأدبنا وأدب المحْدَثين(٣).

و يقارن في واحدة من أغاني حبه بين اثنتين من سراياه اللتين سمّى أيضاً باسميها حصانين إذ لا يستطيع أن «يحتفظ بالاثنين معاً، لأن أحدهما لا يحتمل الآخر». وفي أغنية أخرى يتكلم عن الخيانة الطبيعية للمرأة، التي جعلت كل حراسة عليها غير نافعة، لأنها سَتُسَلِّمُ، بالأحرى، لحرّاسها كي تمتنع عن الحب: «إذا لم تستطع أن تملك حصاناً، فإنها سَتُسَرُّ بجواد من نوع آخر Palefroi » (٤)، أو أنها تحاكي المريض الذي «إن منع من الخمر القوي، يشرب الماء، وذلك أولى من أن يموت من العطش». والدعارة في قطع أخرى هي أيضاً مقحمة.

ولكن جيوم في مجموعة غنائية ثانية يصنع برهاناً معاكساً لذلك، إذ الإصلاح فيها أكبر بكثير، والأدب الذي لاعيب فيه بقصائده الخمسة العفيفة محيّر: إذ نرى المؤلِّف فيها يتأوّه أيضاً وراء امرأة جميلة، و يطلب منها ألاّ تكون قاسية. ولكن ينبغي ألاّ نُخدع: فحبُّ جيوم، حتى في قصائده العفيفة ليس عذرياً (أفلاطونياً) فقط، بل إن العفّة ليست صنعته، والحب الذي يطلبه هو ذلك الحب الذي أوصله إلى نهايته الطبيعية.

(١) الغالي: نسبة إلى بلاد الغال وهي فرنسا قديماً.

(٢) محروم من قبل الكنيسة لأسباب خلقية وغيرها.

(٣) لبذاءتها ومنافاتها للأخلاق.

(٤) جواد كان يركبه الملوك في الاحتفالات قديماً.

وليس في السلسلة الشعرية الآتية غير آثار ولكنها مهمة لهذا الحب الجسدي. إذ لم يكن جوفري روديل «أمير دي بليه» عفيفاً أيضاً، كما تشهد بذلك الأغنية حيث يحكي فيها، كيف كان عند سيدته، فقد كان مشوّشاً بالغيرة ومرغماً على الفرار بلباس آدم، ليتجنّب الضرب الشديد. ولكنه يجد بسرعة طريقه إلى دمشق. وبما أن «ذلك لاطائل تحته»، فإنه لم يبغ أكثر من أن «ينقطع إلى الحب الحقيقي»، وأن يغنّي الأغاني الأخرى.

ونحن نعرف أغنيته «حب من بعيد»، وأسطورة «الأميرة البعيدة» التي نظمت على واحدة من قصائده: وفي الحقيقة، فإنه لاشيء في قصائده الستة يسمح بجعل هذه التخمينات أكثر من أن المؤلف تخيّلها في سيرته: «لقد أغرم بكونتيسة دي تر يبولي (طرابلس) دون أن يراها، لقولها الذي سمعه: وهو تهنئة قيلت للحجّاج القادمين من أنطاكيا». وعلى كل حال، فإن هذا «الحب من بعيد» الذي لم يستطع أن يكون أكثر من حبٍ لسيدة غائبة وقتياً، يبيّن بلا ريب أن هناك تقدماً في جعل الحب صافياً وروحياً.

لم يكن ينبغي لهذا الأمر أن يحدث إلا من برنارد دي ڤينتادور، الأكثر عظمة، وكمالاً وتميّزاً من الشعراء التروبادور في القرن الثاني عشر، ذلك الذي يستطيع أن يُجَسّد النموذج، والذي هو شاعر حقيقةً. إنه ابن خادم كان يسخّن الفُرن في قصر دي ڤينتادور، وقد لاحظ الڤيكونت برنارد الصغير، فدفعه إلى التعليم وقبله في ندوته الأدبية. وصار شاعراً من الشعراء التروبادور وعاشقاً لزوجة الڤيكونت، مما جعله مطروداً من القصر. فذهب من ثم ليكون قرب إليونور داكيتانيا، التي اصطحبته معها إلى انجلترا عندما أصبحت ملكة عليها. ورغم أصله ومنشئه، كان ابن الخادم هذا يحسّ و يفكّر كالسادة الذين اختلط بهم وأصبح شاعر الحب حقاً، «ملكاً حقيقياً للشعر العفيف، كما يقول بلبيرون، الذي سيصوره ليس بطريقة تعليمية فحسب، وإنما بنموذجه، هو الطبيعة والقوانين». والسعادة الوحيدة للشاعر التروبادور هي في أن يحب، وأن يحب حقيقة وعلى وجه تام، أي بشكل شهواني أيضاً، وأن يغنّي حبه. وليس مهماً أن تتأكد السيدة من خشونة أو قسوة، ولكن الأمر على عكس ذلك، إذ أن المحب العفيف في عدم الرضى هذا يجد متعة فائقة، يكون فيها الخبيث محظوراً. وتصل سعادة الحب هذه إلى رقة تثبت أيضاً قيمة المحب، ومع برنارد دي ڤينتادور، فإن العاطفة هي التي تتكلم، وهو رومانسي سواء في الفقرات التي تدفع إلى التفكير في الحزن المبهم عند لامارتين، أو في هذه الفقرات التي تشبه —بالأحرى— نبرات موسيه الحزينة.

إن الشعراء التروبادور بعده وحوله سابقاً، وبهدف التجديد، راحوا يمنعون الجانب الجسدي للحب، حتى لا يكون بعد ذلك غير حب تَصَوُّرٍ فقط، اصطلاحي ودون أية منفعة مادية.

وعلى إثر العلم الواسع والجدل الغرامي لفولكيه دي مارسيئ، ودعابة وروح بير ڤيدال، نجد حباً أفلاطونياً عند سوردل، بيد أن جيوم مونتاناجول يرى في الحب أصل العفة، وأن جيرو ريكيّيه الذي أدين بالحب الافلاطوني أيضاً سينتهي به الأمر إلى أن يحلّ العذراء(١) محل السيدة.(٢)

٢- أغاني الحب

إذا فحصنا الآن نصّ أغانيهم عن الحب أيضاً، نرى أن حالات العشّاق المشغوفين الخجلين الودودين والمتفانين تخضع إلى كل قواعد الحب العفيف تماماً مثل التي عرضها أندريه لوشابيلان. ونستطيع أن نضاعف الاستشهادات، ولن نبقي إلاّ بعضها، وسيكفينا القول أن كل الشعراء التروبادور —مع التّنوع وتبعاً لمزاج كل واحد منهم— قد عالجوا نفس الموضوعات.

و يبدو أن الجميع لا يعيشون سوى للحب، كما أن حياة دون حب لا تبدو لائقة. وكانوا جميعاً يستطيعون أن يرددوا مع برنارد دي ڤانتادور: «إنه ميت حقيقة هذا الذي لا يحلّ في قلبه الطعم الناعم للحب. كيف تسير الحياة دون حب؟؟ كيف تكون إن لم تكن أسفاً للآخرين؟؟ أيستطيع الرب ألاّ يبغضني باعتبار أنني أعيش يوماً أو شهراً بعد أن وقعت في هذه المضجرات، محروماً من كل رغبة في الحب».

— منهم إن أحبّوا، فإن لديهم على الأقل الفكرة الرقيقة لتخصيص كل سعادتهم إلى سيداتهم. وإذا كان لديهم القريحة، وإذا وصلوا إلى النجاح الشعري الحريص، فإنّ ما يقدمون من تشريف وإكرام سيكون لها، وذلك لأن كل مزية تعود لها(٣):

«آه، إن أكسبتني أغانيَّ ومآثري بعض الشهرة، فعليّ أن أُرجع الإكرام والتشريف إلى حبيبتي: إنها هي التي أهاجت قريحتي وشجّعت دراساتي، وهي التي أوحت لي بهذه الأغنيات الرقيقة، لم تكن لتبدو أعمالي مستحبّة ولم تكن لتنجح في أن تبهج أحداً لو لم ينعكس فيّ بعضٌ من كياسة وملاحة سيدتي التي شغلت تفكيري دون توقف».

بيير ڤيدال

«لا شيء في العالم كله يستطيع إعطائي السعادة، إذ أنني لن أحظى بها من ألطاف تلك التي أحبها، ولن أستطيع أن أرضى بها من غيرها، مع أنني مدين لحبيبتي، وعليّ أن أهب حلوتي من

(١) مريم العذراء أم عيسى عليه السلام.

(٢) المحبوبة.

(٣) أي للمحبوبة.

بسالتي وروحي السرور و بأساليب لطيفة، لأنني لولم أرها أبداً، لم أكن أحب أبداً، ولم أكن أرغب في التودّد».

برنارد دي فينتادور

إن المحب هلوع دائماً أمام سيدته، وقد فرضت ذلك القاعدة العشرون من قواعد لوشابيلان. وهذا هو وضع الشاعر الترو بادور، ذروة الخشية والخجل، وهو وفيّ أو حز ين، من الضيق أو الحيرة عندما يتعلق الأمر في فهم مشاعره، ولسبب أقوى، عندما سيتعلق الأمر بعرض رغباته، وبجرأته في طلب أمل بسيط بالحب:

« أيتها السيدة الطيبة والحرّة، فدونك لا أمل لي بالسعادة. أحبك محبة كبيرة بهذا التفاني بحيث يكون قلبي وهو بعيد عنك سقيماً ومتحسراً، وفي هذه اللحظات السعيدة حيث أتمتع بسحر لقائك، فإنني مضطرب جداً وحيران جداً، حتى أنني لا أجرؤ على أن أعبّر لك أنت بالذات عن المشاعر التي توحين بها إليَّ أنت وحدك.».

هيج دي لاباشيلري Hugues de la Bachelerie

«إبداء التوسلات المرفوضة، شيء كر يه وصعب جداً، و بناء عليه فسأقدم أمنياتي لحبيبتي، دون أن أوجّه لها كلاماً. وكيف؟؟ بلحني، وأساليبي، ونظراتي، وربما تتنازل وتفهمني. آه، أية سعادة، وأي شكران، عندما يسمع القلب وحده والقلب الآخر يجيبه، ويمنحه عودة وإحساناً لم يُطلب».

بيرول peyrols

إن قانون الحب في المادة ١٥ يحدد ما يلي:

« على كل محب أن يمتقع لونه في حضور حبيبته»، وفي المادة ١٦: «وعلى قلب المحب عند رؤ ية حبيبته فجأة أن يختلج». وفي هذا مثال عند برنارد دي ڤينتادور: «على الفور، حين ألمح حبيبتي، يستولي عليّ خوف مفاجىء، تضطرب عيناي، و يكمد وجهي، وأرتجف كالورقة التي يحركها الهواء، ولا يكون لدي عقل طفل، مقدار حبي يقضّ مضجعي!! آه!! هذا الذي خضع بحنان يستحق أن يكون له عند سيدته الإكرام.».

لا يخشى شعراؤنا التروبادور في تذلّلهم أمام السيدة المبالغة. وهم يصرّحون بسرور — مقدرين المسافة التي تبعدهم عنها — أنهم غير أهل للإعجاب، وسيسرّون أيضاً بعض الشيء: من ابتسامة ونظرة، و يصلون إلى أعلى ذروة للسعادة:

« دون شك، ينبغي أن أموت من حب أجمل واحدة في العالم، وأموت دون عوض. وتعجبني مفاتنها المدهشة، وقد عرفت أنها لا تستطيع أن تكون حبيبة لي. إذا أرادت أن تهب قلبها، فليس عليها إلاّ أن تختار بين أجمل الفرسان والبارونات الأكثر قوة، ويجد المرء فيها كمال المزايا، والجمال والكياسة واللطف: وعليها من ثم أن تختار حبيباً أهلاً لها.».

برنارد دي بورن Bernard de Born

إنهم قنوعون جداً في رغباتهم، وفرحون بأقل إحسان:

« أشكر الحب بإخلاص، الذي أخضع قلبي لسيدة. جمعت الجمال والعقل والمهارة والأدب، والمعرفة واللطف، فإذا كانت قد تفضلت و وهبتني نظرة فقط، ابتسامة، بعثت لي برد لطيف، كان ذلك بأدب بسيط، ولا شيء يبدو لي مقصرا عن فضائلها. وفي النهاية، إذا كنت قد نلت منها عودة لطيفة فلن يتمنى حبي أكثر من ذلك شيئاً. علاوة على ذلك، فإنني أمنع نفسي من كرمها الرزين».

راهب دي مونتودون Le Moire de Montdudon

«إن آلام الحب الذي تنزله في قلبي هذه الحسناء والتي أكون عبدها الخاضع والمتفاني في سبيلها، ستسبب موتي. ومع أنها ستطيع أن تجعلني سعيداً، إذا سمحت بشعرة فقط من شعرها الذي يتساقط فوق معطفها، أو خيطاً من خيوط نسيج قفازها. و بإشارة من مراعاتها، أو أيضاً، بأكذوبة بنيّة الرضى والنفع، فإنها كانت تستطيع أن تحبسني، إذا أرادت ذلك، في فورات سرور مستمر: إنها في الواقع — كلما أعيتني بالجفاء والقسوة، كلما أحببتها بإخلاص وشدة».

جيوم دي سانت - ديدييه guillaume de Saint Didier

إنهم في الواقع — حتى وهم تعساء في حبهم — سيحتفظون لها برباطة الجأش في كل برهان لتفانيهم وخضوعهم. و يفضّلون — وهم يحبون دون أمل — بهجة الألم قربها، على السعادة التي يجدونها عند غيرها.

وهذا تطبيق للمادة ١٢ : «لا يرغب المحب الحقيقي بأخرى أبداً غير حبيبته». والمادة ١٤: «إن استمالة سهلة تجعل الحب دون قيمة، هي استمالة من الصعب أن تعطيه الثمن». وإن كلمة «سَريّة maitresse (١) نفسها تأخذ هنا معنى خاصاً، معنى إقطاعياً: إنها صاحبة الإقطاعة التي هم متفانون في حبها حتى الموت، كتفاني عبد لسيده.

« مع أن الحب يسبب آلامي وموتي، فإنني بعيد عن الشكوى، وإذا متّ من الحب، فذلك أقل شيء بالنسبة لأحب وألطف النساء، وإنني أنظر لهذا القدر كأنه سعادة. إذا سمح لي بالأمل بأنها ستتنازل يوماً وتمنحني رحمتها، فما تكون الآلام التي أكابدها؟ أبداً، إنها لن تسمع في أقل همس».

سوردل Sordel

« وبما أنني أستسلم كذلك تماماً ودون أي ضمان لسلطتها، أعليها أن تطردني أيضاً؟؟ إنني عبدها، وتستطيع أن تبيعني، وتستطيع أن تهبني. كل من يتجرأ على التقدم للقول بأنني أقدم أمنياتي لسيدة غيرها، هو مذنب بأكذوبة جسيمة، وأفضّل أن أسقم بقربها، وأن أكون تعيساً، من أن أجد السعادة عند غيرها».

بيير ڤيدال Pierre Vidal

« نعم، إنني أرتضي بأن أكون معرّضاً لصولات الحب، نعم، وأن يؤلمني صباحاً ومساء، لن أطلب هدنة أو راحة، كما أنني لن أنال شيئاً مما أرجوه، إن هذه التي تسبب آلامي هي كاملة جداً لدرجة أنه لا سعادة في الوجود تستطيع أن تقارن مع هذه الآلام نفسها».

بيرول Peyrols

« لقد جرحني الحب بطريقة لطيفة، حتى أن قلبي يشعر من خلال التعاسة بإحساس لذيذ، إنني أموت من الألم مئة مرة في اليوم، وأعود للحياة من الفرح الشديد مئة مرة في اليوم، فمصيبتي من نوع غريب جداً ولطيفة جداً حتى أن هذه المصيبة أو المضرة نفسها مفضلة على كل خير، ولأن لهذا الألم سحراً كبيراً، فكم تصبح المسرّات أكثر سعادة وفرحاً بعد هذه الآلام!!»

---

(١) تعني بالفرنسية شابة مفرطة اللباقة ومعجبة بذاتها وعشيقة لأحد الرجال عامة.

برناردي فينتادور Bernard de ventadour

ولأنهم في توجعهم الراهن، لا ييأسون، و يظنون جيداً أن ثباتهم سينتهي بتليين الحسناء فإنه: «لا أحد يستطيع أن يحب حقيقة دون أن يكون مطروداً من خلال الاقتناع، أي الأمل في الحب (القاعدة التاسعة).

وهذا ما يجعلهم يتلقون مصيبتهم بصبر:

« إن المضرات التي تسببها لي قسوتك لطيفة وناعمة بالنسبة لي، لأنني آمل منها الثواب».

أرنو دي ماري Arnaud de Marevil

« قسوتك ، آه أيتها السيدة الحسناء، لا تفزعني، إذا كان مسموحاً لي بالأمل في أن أنال منك بعض الحظوة، في مجرى حياتي، كان ذلك سهلاً. سالياً من خلال هذه الفكرة، الآلام التي أصبحت بالنسبة لي عزيزة وحلوة. إنني متأكد أن الحب سيعوضني عن آلامي وثباتي. وعلى المحب الرقيق أن يغضّ الطرف عن القسوة المستمرة، وعليه أن يتألم بطيب خاطر ليستحق أحسن مصير».

جيوم دي كابستان guillaume de cabestaing

هذا هو الأمل الذي شجعهم على الوفاء المطلق والدائم الذي كرّسوه لسريتهم. إنهم يعرفون أن لا أحد يستطيع أن يرتبط بحبّين في نفس الوقت (القاعدة الثالثة). كما يعرفون أن المحب الحقيقي مشغول الفكر دائماً بطيف محبوبته المستمر (القاعدة.٣). وبناء عليه، فإنهم يفكرون فيها في كل لحظة من النهار، و يفكرون فيها وحدها طول الليل أيضاً.

«آه سيدتي العزيزة!! أنا لك وسأكون دائماً لك. عبداً متفانياً في تنفيذ أوامرك، إنني خادمك ورجل الإقطاع (التابع لك)، أنا ملك يمينك للأبد، فأنت حبي الأول وستكونين حبي الأخير. ولن تنتهي سعادتي إلاّ بانتهاء حياتي».

برناردي فينتادور Bernard de ventadour

« يبدو لي غالباً أثناء نومي أنني معك، وأشعر (بمتعة) عذبة جداً، بمتعة حية حتى انني أرى حلمي

كتعاسة، عندما ينقطع هذا الشرود (الحلم) الساحر. نعم، عندما أنتبه أكون فريسة للرغبات التي تقتلني، وأرتضي أن يصبح مثل هذا الحلم السعيد أبدياً أيضاً».

أرنو دي ماري

«بذلت جهدي لأقصي نفسي وأبعدها عنك، آه، سيدتي العزيزة، هذه هي شدة حبي، ومن المستحيل أن قلبي يفترق عن صورتك!! حتى أنني في نومي المستديم أتخيل كثيراً أنني أمرح وأضحك معك. وأتذوق السعادة العظيمة. ولكن عندما أصحو، أرى وأعرف وأتحقق من أن هذه السعادة الوهمية قد تحولت إلى ألم حقيقي».

«لعل الله لا يهبني أي سعادة أبداً، إذا انقطعت لحظة عن عشق محبوبتي. هي وحدها التي ستنال احترام حبي العفيف، وقد كنت أرفضه من كل حسناء أخرى. وهي وحدها التي أتعلق بها، والتي أنقطع لحبها، وهي وحدها التي تملكني. إن تقديم السرور لي بعيداً عنها يجعلني منفياً داخل العزلة».

بيرنجر دي بالازول Beranger de palasol

من الطبيعي أن يَعِدوها بكامل الرزانة والفطنة، وذلك لأن الحب نادراً ما يستطيع أن يدوم، عندما يكون مكشوفاً كثيراً (القاعدة ١٢). ويدرك المرء —حول هذه النقطة على الأقل— أنهم —وذلك إلزامي في هذا العصر كما هو في أيامنا— كانوا حسني النيّة:

«إذا تفضلت بمنحي بعض الإحسان، آه يا أعز النساء، فاعلمي أنني سأتحمل الموت أولى من أن أرتكب أقل خطأ بإفشاء السر. آه، إنني أطلب من الله أن يقضي على أيامي في اللحظة التي أرتكب فيها خطأ خيانة سر ألطافكم».

أرنو دي ماري

هذا هو السبب الذي من أجله يكلمون سيدتهم، عندما يحددونها، تحت أسماء مزورة:

فبرنارد دي ڤينتادور يحدد إليونور، دوقة نورماندي، تحت اسم «كونور»، وبير روجييه يطلق اسم «توروناڤي(١)» على زوجة الڤيكونت إرمنجارد دي ناربون، وأرنو دي ماريّ يطلق اسم «بل

---

(١) Tort n'avez ومعناها ليس لديكم عيب.

رجارد(١)» على الكونتيسة أديليد دي بيز ينسيه. وقد كانت هذه الأسماء من جهة أخرى تضيف أيضاً سحر الغموض، وكانت تسمح بسهولة أكثر بتضليل الحاسد والغيور، وعلى استعداد لخدمة الشاعر المُنْعَم عليه.

هذه هي الموضوعات المشتركة بين كل الشعراء التروبادور، و يتناولها كل واحد منهم بطر يقته. و يرى المرء أن «أغانيهم هي تطبيق لقانون الحب الذي حرره أندر يه لوشابيلان. وسنرى الآن المطابقة التامة بين أحكام الحب الصادرة من مجالس النساء والمحاورات الشعرية **Tenson** (٢) أو مجادلات التسلية والترفيه (فرق اللهو **Jeu parti** (٣)) من الشعراء التروبادور.



(١) **Bel regard** ومعناها نظرة جميلة.

(٢) هو الإتقان أو التحسين الأدبي للّعب الذي يكون عن طر يق الشعر الحواري، و يقوم بهذا التحسين الشعراء التروبادور.

(٣) وكلمة **Parti** تعني فرقة أو حزباً أو عُصبة، وكلمة **Jeu** تعني لهواً أو تسلية، والروح العام للاصطلاح يعطي الانطباع بأن هناك طرفين متقابلين بينهما منافسة ما، وأما المقصود بالاصطلاح هنا فهو أن هذا النوع من التنافس أدبي و بالتحديد هو شعر حواري حيث يتناظر شاعران بأدوار شعرية أو غنائية مطردة في موضوع محدد بينهما وأحياناً تنتهي بعاصفة حيث يدعى محكّم للتحكيم بين المتنافسين.

المحاورات الشعرية ومجادلات اللهو

الحوارات الشعرية أو «التنسون» هي شعر محاورة حيث يتناظر فيه اثنان من الشعراء بأدوار شعرية مطّردة متقابلة في موضوع محدد بينهما، وكانت تنتهي (هذه المحاورات) أحياناً بعاصفة حيث يُدعى محكّم (للحكم بينهما). وكانوا يرغبون في رؤية عرضٍ بأغانٍ متقابلة لقصائد رعائية صغيرة من شعر فرجيل على سبيل المثال.(١).

ولكنه على افتراض أن الشعراء التروبادور كانوا علماء بما فيه الكفاية ليعرفوا فرجيل، فإن الأمر يبدو طبيعياً أكثر حين نفترض مع أندريه جونورا «أن مشعوذين متناظرين، لديهما الفكرة أن يشتركا لأداء دور مأساوي (دراماتيكي) على مسرح الإنشاد، وللَسْع الفضول بجاذبية المصارعة، حيث يحاول كل واحد منهما أو يتظاهر بأنه يحاول أن يفوق منافسه أو يجعله أضحوكة للناس».

وباستثناء بعض المحاورات الشعرية الشخصية، المتبادلة بين اثنين من مشعوذي التلميحات اللاذعة أو الشتائم السفيهة، فإن الجزء الأكبر من المحاورات يعالج موضوع الحب: بحيث أن الأفكار العامة للحب العفيف —من جهة أخرى— هي مثل المسائل التفصيلية في قوانين العشق المماثلة لمناقشات «مجالس الحب».

— إن ملكاً في الحب مثل فارس بسيط ويمكنه أن يزعم أنه محبوب لذاته؟؟
— أيوجد حقوق متساوية لكل من العاشق والحبيبة أحدهما على الآخر؟؟
— أينبغي لمحب عاقل أن يسعى للنجاح حتى ولو كان ثمنه عدم الثبات، أو يلجَّ في المطاردة دون أمل؟؟

وفن مجادلات اللهو **Jeu parti** أو **partimen** هو التحسين أو الإتقان الأدبي لهذا اللعب(٢) الآتي من وسط فرنسا، وقد انتشر سريعاً وبسهولة في الشمال: وقد كان ذوق المناقشات والمحاورات في الأقاليم الشمالية في الواقع أكثر تطوراً، بسبب المدارس والجامعات الأكثر ازدهاراً وعدداً. إن السائل في «مجادلة اللهو أو التلهي» يفرض على شريكه (في المجادلة) الخيار بين قضيتين، ويلزم

(١) الشعر الرعائي: وهو شعر قصصي فيه لمحات إنسانية قريبة من الواقع أكثر من شعر الفروسية، وإن كان يتخذ التلميح كقناع لنقد الطبقة الأرستقراطية في المجتمع.

(٢) أي إتقان المحاورات الشعرية.

نفسه بالدفاع عن تلك التي ستبقى حرة(١). فإذا كان بعض هذه المواضيع يستحق أن يناقش حتى في أيامنا هذه، يكون معظمها عديم الفائدة أو غريباً كما سنرى في هذه الأمثلة:

– أيها تحب أكثر: أن تكون سريّتُك ميتة أو متزوجة من غيرك؟؟
– أيها يتألم أكثر: زوج لامرأة خائنة أو عاشق لسريّةٍ خائنة؟؟
– أيعاتَب هذا الذي يتباهى بالصلات التي لم تمنح له، أم هذا الذي يذيعُ تلك التي حصل عليها؟؟
– إذا كان عندك موعد مع سريّتك ليلاً، أتفضّل أن تراني خارجاً من بيتها، في حال دخولك، أو تراني أدخله وأنت خارج منه؟؟
– أحبُّ امرأة لم أستطع إخضاعها، وأخرى تقدّم لي قلبها: أينبغي لي أن أمتنع عن الأولى، أو أظل أخدمها؟؟
– أنت تستمتع بألطاف سريّتك خلال بعض الوقت، وآتي أنا لإسعادها وأخلفُك: أيّنا نحن الاثنين عليه أن يشعر بالألم أكثر؟؟
– بعضهم يقترح أن ....(١) لا تصلح ترجمته.

....

....

– اثنان يحبان بعضهما البعض ....(٢) لا تصلح ترجمته.

....

– أيها أسعد، امرأة عجوز تصبح حبيبة لفتى أو رجل عجوز لحبيبةٍ صغيرة؟؟
– أيها أحسن: امتلاك امرأة كسريّة أو عذراء؟؟
– أيها المفضل عند المرأة: عاشق محنّك خبر اللذة، أو فتى شاب طرير لم يعرف اللذة بعد؟؟
– أيها يفضّل المحب: أن يمتلك ألطاف حبيبته، معرّضاً إياها للفضيحة، أم يفقد هذه الألطاف ليحتفظ بحبها سراً؟؟
– محبّ يستمتع بسريّته، وآخر يحبها مثله على أمل أن يستمتع بها قريباً. فإن ماتت، أي واحد من الاثنين سيحزن عليها؟؟
– ما يجعل المحب سعيداً أكثر؟ الأمل بالاستمتاع أو الاستمتاع نفسه؟؟
– أيها تحب أكثر: سريّة جميلة بعض الشيء، ولكنها حكيمة، أو سريّةً حكيمة بعض الشيء ولكنها جميلة جداً؟؟

---

(١) أي التي لم يخترها الشريك أو المنافس الآخر.

— من يشغل وقته أحسن : رجل يطارد امرأة ماهرة مع أمل الاستمتاع بها، أو الرجل الذي يحب حمقاء يستمتع بها ؟؟

— أيدّخر الحب للأوفياء مسرّات أكثر أم آلاماً ؟؟

— أيها يسبب ألماً أكثر للمحب: موت المرأة أو خيانتها ؟؟

— أينبغي على المحب الأمثل أن يتمنى اللحاق بسيدته في قبرها أم يعيش بعدها ؟؟

— أبالعيون أم بالقلب يكون الحب أبقى ؟؟

— أينبغي للمرء أن يستمتع بألطاف سيدته دون أن يعرف ذلك أحد، أم يرتكب الخطأ ليتمتع بها ؟؟

— أيها أقيَم : أن تحب من يكرهك، أو بغض من يحبك؟؟

— أيها أفضل : حب امرأة لا ترحم أو ألطاف أخرى لا تحبك ؟؟

— امرأة ترفض أو تمنع حبيبها من ألطافها وتمنعه أن يلاطف أخرى، أتعامَل لهذا بالحب أم بالبغض ؟؟

— فارس أغرى امرأة مدة طويلة عبثاً، ونقل مجاملاته لأخرى تمنحه موعداً، لكن الأولى المتّهمة، تحاصره بموعد آخر في نفس الساعة: إلى أيها ينبغي أن يتجه ؟؟

— محبّان يذهبان للقاء حسناواتهم ليلاً: يفاجآن بعاصفة، و يقابلان، ليس بعيداً من قصرهما، فرساناً يطلبون مأوى. أحدهما يدخل بيته ليأويهم، والآخر يتابع طريقه، أيها أحسن عملا ؟؟

— سيدة جالسة بين ثلاثة عشاق .... أيهم المُكرَمُ أكثر؟؟

يدرك المرء الآن، خاصة من خلال الأمثلة الأخيرة، أننا أوردنا كيف أن البعض أرادوا إثبات أن فقرة «مجادلات اللهو» قريبة من المسائل التي نوقشت في «مجالس الحب». وفي الحقيقة أن الجميع يسمح بافتراض أن المجادلات اللاهية المرحة أو محاكمات الحب كانت من لهو المجتمع، لهو الصالونات التي كان عليها أن تحفل ببعض النجاح. فهذه وهذه تنبثق من نفس أصول الحب الملاطف الذي سنّ لوشابيلان ببساطة قواعده المعروفة لكل مطلع عليها.

الفصل الثامن

الحب في روايات كريستيان دي تروا

«كثير من الناس من يحب طائعاً»
لانسلو

كما هي أغاني الحب للشعراء التروبادور، فإن عمل كريستيان دي تروا هو — غالباً — تطبيق المذهب الذي كانوا يخضعون له حينئذ، والذي كان معروضاً بأسلوب قانوني في كتاب «فن الحب Dearte amandi ». و يعني هذا أنه لم يكن مسألة غير مسألة الحب في أعمال الشاعر التروڤير(١) في إقليم شامبانْي.

ولقد اقتدى كريستيان دي تروا، أولاً، باللاتينية القديمة مثل كثير من رجال الإكليرك والعلماء غيره في عصره، وشرع في ترجمتها أو تطبيقها. فكان يعرف من ثم اللاتينية، وهذا يثبت أنه لم يكن يتردّد إلى المدارس والمشعوذين فحسب، وإنما كان يعمل دراسات في بعض الأنظمة الدينية، أو الرهبانية، أو الأسقفية. وقد اختار اوڤيد Ovide للتطبيق أولاً: أربعة من «تقمصاته أو تحولاته» Metamorphoses ، التي بقيت إحداها سالمة: وهي «فيلومينا Philomena » أو الهزار الذي تحوّل إلى «عندليب» (من حيث الصوت)، ثم كتاب «فن الحب» الذي فقدت ترجمته لسوء الحظ.

وبعد هذه الأعمال في شبابه، حيث يحتل الحب فيها المكان الأول، كتب كريستيان روايته الأولى «تريستان وإيسيه Tristan et Iseut » قبل أن يكتب منافساه الاثنان الانجلو نورمانديان بيرول وتوماس روايتيهما.

ومن المؤسف أن هذه الرواية قد فقدت أيضاً. وكان مسموحاً لنا أن نجري مقارنة شيقة عندما ندرس كيفية معالجة المؤلف نفسه لشكلين من أشكال الحب المختلفة أيضاً: الهوى الجامح لكلٍ من «تريستان وإيسيه» وحب لانسلو Lancelot العفيف، نموذج الخضوع التام للسيدة.

ومهما يكن من أمر، فإن ما صنع مجد كريستيان دي تروا وأن ما جعله في زمنه يُعتبر كأكبر شاعر لفرنسا وأوروبا، وأن ما جعلنا نقدسه في أيامنا، بعد ج كوهين، «كمؤسس وأبٍ للرواية الفرنسية» هو

---

(١) شاعر جائل في شمال فرنسا قديماً.

بقية أعماله: وهي: الروايات البريتانية(١) والآرثرية(٢)، أو روايات «المائدة المستديرة» التي كان موضوعها كلها هو الحب.

إن الجميع يعرف «أسطورة آرثر»، في القرن الخامس عشر أو السادس عشر، في الوقت الذي رُدّ فيه البريتانيون، عن طريق الساكسون، إلى بلاد الغال(٣)، كورنواي وبريتون الفرنسيتين، وقد كان هناك ملك بهذا الإسم —وكان أولاً منتصراً— والذي قضى نحبه بسقوطه في معركة حاسمة لاستقلال بريتون. ولكن الأسطورة أضفت عليه أجمل هالة كما هو الحال بالنسبة لشارلمان ورولان. وهكذا أنشأ هذا الملك الأبيّ والمتدين في مدينته كايرليون: «بيت جوقة الشرف»(٤) في جنوب بلاد الغال، ونظام فرسان المائدة المستديرة: وحول هذه المائدة —ودون طرف عالٍ أو طرف وطيء، أي دون (اعتبار) صدر المجلس (٥)— كان يجلس أقران الملك آرثر، مخدومين في نفس الوقت وبنفس الأسلوب، في مساواة مطلقة. وينطلق هؤلاء الفرسان: بيرسفال، لانسلو، جوفان... الخ، للبحث عن «الجُرال **Graal**»، وهو الإناء الغامض الذي جمّع فيه جوزف داريماتي الدم الذي نزف من قلب المسيح. والجُرال —والحالة هذه— والمخفّي داخل غابة حتى يسلم من تدنيس السكون، لا يمكن أن يكتشف إلاّ بواسطة فارس نقي تماماً، وعلى المكْتَشَف هذا أن يكون إشارة لتحرير بريتون العظيمة.

هذه هي الأسطورة. ولكن مؤلفي روايات بريتون تناولوها دون انزعاج، حتى مع هذه الأسطورة، لم يكن آرثر بالنسبة لهم فاتحاً لا يقهر فحسب، بل كان ملكاً مجاملاً **courtois**، محاطاً بعدد كبير من النساء، ويحيا —معهن ومع فرسانه— حياة مزهوة لامعة، وقد استفاد في ذلك من النموذج الذي كان في انجلترا في بلاط الملكين هنري الأول وهنري الثاني. وهذا ما ذكرته لوحة المؤرخ جيوفروا دي مونموث حوالي عام ١١٣٥م في مؤلفه «تاريخ بريتانيا» وهو عمل مترجم إلى الفرنسية في أبيات حوالي عام ١١٥٥م بواسطة واس **Wace** في مؤلَّفه «الشرس».

ومن هذا الأُصل الآرثري، راح كريستيان دي تروا يستقي موضوعات رواياته في الحب والمغامرة. ففي روايته البريتانية الأولى «إريك وإنيد» (١١٧٠م)، يسلم الحب الخطى إلى حاجة المغامرة. وفيها ينال إريك —وهو فارس شاب لدى آرثر— يد إنيد، أجمل الفتيات، من خلال بطولته في مباراته،

---

(١) نسبة إلى إقليم بريتون في فرنسا.

(٢) نسبة إلى الملك آرثر.

(٣) بلاد فرنسا قديماً.

(٤) فرقة جنود في فرنسا.

(٥) ويعني هنا عدم التميز بين الحضور بل المساواة في الأماكن والإكرام.

والتي يكون معها في البلاط سعيداً، وسعيداً جداً أيضاً بالنسبة لفارس، ذلك لأن الحب قرب حبيبته ينسيه الواجب الرئيسي للفارس، وهو ملاحقة للمغامرة في الحروب أو المباريات. في معيتها يتّهم المرء بالتراخي، أي بالجبن، أو —لنكن أكثر دقة— بنسيان الأعمال الحربية والمقدامة. حتى أن المرأة بقربه تردّدُ صوت توبيخه، حزناً من كونها المسؤولة الوحيدة عن ذلك. فيتّخذ، وهو مجروح من أنانيته، حكماً صارماً، ليرى إنيد أنها مخطئة وأن بسالته ليست متكاسلة متراخية، فيصحبها معه ويجعلها شاهدة على كل مآثره الخارقة: قتال ضد قطاع الطريق، معارك منفردة ضد الجبابرة، كمائن ومكائد، حتى يصبح إريك هذا —عند موت الملك لوقا أبيه— متوّجاً مكانه، وسط احتفال فاخر تنهي به اللوحةُ الرواية. ولقد «كان ثابتاً —وهذا ما يقوله ج. كوهين— أن الحب والزواج اللذين كانا مصير المرأة، ينبغي أن يتركا المكان للمغامرة التي كانت قدر الرجل». ونلاحظ أن الحب —في الرواية الأولى هذه على الأقل— لم يحكم عليه بأنه مناقض للزواج، كما كان يعلنها مذهب «مجالس الحب». وهذا لأننا في حقبة لم يعد يختلط فيها كريستيان دي ترووا بماري ابنة إليونور داكيتانيا.

ليس هناك شيء أكثر من هذا في رواية «كليجيه **Cliges**» التي من المفروض أن تكون (قد كتبت) في عام ١١٧٦م، حيث مايزال الزواج هو التقديس الشرعي للحب. إن ولداً لامبراطور القسطنطينية ألكساندر(١) —الذي لم يبق منه إلا الإسم المشترك مع الفاتح العظيم(٢)— قد جاء إلى بلاط الملك آرثر، الذي هو مدرسة كل الفضائل الكريمة. وهناك، يعشق سوريدامور «شقراء الحب»، وجليسة الملكة جينيفر، «التي كانت تزدري الحب». ولكن هذه الحسناء، التي كانت حتى ذلك الوقت متمردة على الحب، انتهى بها الأمر يوماً أن أصبحت مضطربة هي نفسها. وكان بطلنا —كما ينبغي له (أن يكون)، بطل حرب أيضاً. وقد أثبت ذلك حين وضع بسالته في خدمة آرثر والذي وطّد له النصر وحده على عدوّ خطير. وتعطيه الملكة جينيفر زوجة آرثر —كمكافأة له— سوريدامور جليستها زوجة له. وهنا يقود الحب أيضاً إلى الزواج.

لم يعد شيء من هذا في رواية «لانسلو» أو «فارس العربة» التي من المفروض أن تكون (قد كتبت) بين الأعوام ١١٧٧-١١٨١م/ في هذا العصر، كان كريستيان دي تروا —كنذير حرب— في خدمة ماري التي أصبحت كونتيسة دي شامبانْي بزواجها من هنري الأول الليبرالي، كما كتب ذلك كريستيان نفسه في بداية قصيدته التي ألّفها بطلب صريح من كونتيسة دي شامبانْي، لأنها هي التي فرضت عليه الموضوع والقضية. وهذا الموضوع وهذه القضية —والحالة هذه— وكما سنرى، في روح وتراث الشعراء التروبادور الذين جلبتهم ماري من بلاط دي بواتييه إلى بلاط تروا. ولنتذكر كذلك محاكمات الحب التي درسناها لهذه الكونتيسة، ولنتذكر مواد قانون الحب التي اسْتُند إليها، وسنرى أن

(١) الآستانة، استانبول.

(٢) يقصد الإسكندر المقدوني.

الحب في هذه الرواية هو الحب المجامل (العفيف) بالضبط، والذي سنحلله قريباً وبتفصيل أكثر، ولكن يستطيع المرء —الآن— أن يعيّنه من خلال هذه العبارة: خضوع أعمى للسيدة التي تستطيع أن تقهر أهواء حبيبها الخارجة عن الصواب أو الأكثر غرابة.

إن الفارس لانسلو قد عزم —في الواقع— على مجابهة كل شيء لتحرير سيدته، التي لم تكن إلا الملكة جينيڤر نفسها، والتي قادها الجبار الماكر «ميلياجان» رهينة. ولكن، أي عقبات سيقهرها، وأي مذلاّت سيتحمّلها!!!

هذه —أولاً— عربة العار التي ينبغي للانسلو أن يصعد إليها لمعرفة القزم الذي اقتادها، حيث توجد الملكة. هذه عربة يلازم المرء فيها اللصوص والقتلة ليعرّضهم لسخرية ومزاح الجموع. ويدرك المرء أن أي فارس (لابد أن) يتردّد لحظة قبل الصعود إليها، ولكن، بما أن هذا هو الشرط للإفادة بأن الملكة أصبحت «حباً يريده، لذا فإنه، من ثم، يصعد إليها.».

وفي القصر، حيث يقودها القزم، ينام فارسنا —رغم الحماية التي فرضت من أجلها— تحت سرير ملكي. ولقد أدين لذلك بظهوره في منتصف الليل عن طريق حربة نار أشعلت سريره. وفي الصباح، ومن خلال نافذته، تحقق من الملكة جينيڤر في موكب جنازة: ولو أن جوڤان لم يمسك به، لرمى بنفسه إلى أسفل، ليجدها ثانية!!

ولكن، قبل أن يجدها، كانت هناك تجربة أخرى تنتظره: وهي «جسر السيف»، وفوق ماء «مرعب ورهيب جداً قيل عنه أنه نهر الشيطان»، كان هناك سيف بدلاً من جسر.

« وكان حاداً أكثر من منجل »
« والأيدي عارية، والأقدام بلا جوارب »
« وكان يجب عليه أن يستشهد أكثر »
« من أن يقع من الجسر ويسقط »
« يتقدم، وبألم كبير، »
« الأيدي والركب والأقدام مجروحة »
« ولكن الذي يقوّيه ويشفيه »
« هو الحب الذي ساقه واقتاده »
« وكل ذلك بالنسبة له لطيف للألم »

فلا نصيحة رفاقه —التي يجيب عليها بشموخ في منتصف الجسر بقوله: «الموت أحسن من العودة»، ولا منظر أسدين في الجهة الأخرى للنهر استطاعا أن يجعلاه يمتنع عن المجازفة التي يخرج منها في النهاية منتصراً.

وعليه في النهاية مواجهة المعركة الفردية مع الجبار ميليا جان، والمعركة رهيبة عندما يهجم أحدهما على الآخر.

بعد قليل «لا يبقى حزام أو سير (١)»

«ركاب، عنان، ولا سرج»

«(يمنعه من أن) يتحطم»....

كما كانوا ملزمين بإكمال المعركة على أقدامهم، ولكن لانسلو المنهوك من نزيف الدم الذي فقده على جسر السيف، يبدي إشارات الضعف. وفي هذه اللحظة، يخطر ببال إحدى الفتاتين الأسيرتين أن تدفع الملكة جينيفر إلى الظهور من النافذة. إذ تكفي نظرتها وحدها لإنعاش بطلنا. فيحمل على غريمه.

«والقوة والشجاعة تزدادان لديه»

«لأن الحب كان له عوناً عظيماً»

و يتوسط والد ميلياجان لدى جنيفر، وتُعلم هذه لانسلو «أنها تريد أن يتمالك نفسه». و يكفي ذلك، فيطيع الفارس -الخادم رغبة سيدته، ولا يدافع عن نفسه بعدها، بينما يستمر غريمه في الضرب، وفي هذه المرة يقطع الملك الشرعي «بادماجو» القتال برفع ولده «ميلياجان».

وهكذا، ووفاء لأوامر سيدته، لا ينتظر لانسلو المنتصر أكثر من ثواب لجهوده وآلامه. بل إنه -فضلاً عن ذلك- غير متطلّب: و يطلب أن يكون مقاداً قرب ملكته فقط، وأن ينال منها ابتسامة. وحتى هذه السعادة قد رفضت له. فما السبب؟؟ إن الفارس كان لمعرفة أين كانت الملكة؟ قد تردد لمدةِ ثانيةٍ قبل أن يصعد إلى عربة العار!! وكانت ثانية التردد هذه كافية له ليأخذ «هدية حرب» إذا كان مستحقاً لها فعلاً!! ولن يكون هذا أيضاً نهاية إذلاله.

و يقع لانسلو -وقد نال الحظوة قرب الملكة- أسيراً إثر مكيدة من ميلياجان، ثم يحظى بالإذن له للذهاب لمشاهدة مباراة في بلاط آرثر، واعداً أن يعود بعدها إلى السجن. ولكنه يشترك في المباراة كمقاتل، وفي حضور جينيفر يصنع العجائب و ينال نجاحاً كبيراً!! ولكن الملكة -بنزوة أثناء المعركة- تخبر فارسها سراً أن يقاتل بطريقة أسوأ، أي أن يفتر في حميّة. «ويجيبها: بكل طيبة خاطر». و يقبل -حتى نهاية المعركة وتحت تأثير جلبة وصراخ الجمهور- أن يمضي كجبان، ليرضي سيدته فقط، لأن (هناك).

«كثيراً (من الناس) من يحبّ طائعاً».

وفي اليوم التالي تبدأ المعركة من جديد. و يُطلب من لانسلو في البداية أن يكمل القتال بطريقة أسوأ، و يظل -وهو مهان دائماً- طائعاً، ولكن الملكة -في منتصف المعركة وعن طريق الرسول

---

(١) حزام في مؤخر السرج يشدّ على عجز الدابة تحت ذنبها (المعجم الوسيط).

نفسه— تطلب منه أن يقاتل بطريقة أحسن. و يبدأ بطلها من جديد بصنع العجائب، و يقهر كل خصومه تباعاً.

إنه من الصعب تصور مثل هذا الخضوع للسيدة. ومن المستحيل إدراك مثل هذا الانتصار، في هذا العصر خاصة، من جنس ضعيف على جنس قوي. ومن المستحيل إيجاد شهرة أحسن من هذه لمذهب شابيلان عن طاعة أوامر السيدات خاصة، إذا كان أصحاب النزوة ومخالفو الصواب (هم من أوجدها). إنّ «المرأة والطائش»(١) هما من خلق القرن الثاني عشر!!

ولنكون عادلين، نقرّ بالقول أن «لانسلو» هو العمل الأدبي الوحيد الذي دفع بسلطة المرأة إلى الأمام بدرجة كهذه، وأن هذا العمل قد كتب بأمر صريح من سيدة كان كريستيان لديها «شاعراً مستأجراً»، وأن المؤلِّف لم يكن لديه الشجاعة ليختتم الرواية على هذه الوتيرة، وأن يكملها آخرُ و ينهيها بدلاً منه، وفي النهاية، فإن كريستيان — بعد هذه التجربة — ترك بلاط كونتيسة دي شامبانْي إلى بلاط فيليب فلاندر.

ولن يكون أقل حقيقة من ذلك أن لانسلو هو النموذج الكامل للفارس الملاطف **Courtois**، والذي أصبح محل إعجاب الحسناوات في «مجالس الحب». وهو فارس خيالي كما كنّ يصفنه، لديه الإقدام والسخاء، ولكنه فوق كل ذلك نموذج العاشق الذي عودنا عليه الشعراء التروبادور: فكل أفكاره ملك حب الملكة جينيڤر الوحيد، ومن أجلها يحتمل كل إهانة. و يتغلب على كل العقبات، و يقع مغشياً عليه عند رؤيته مشطها و بعضاً من شعرها، و ينحني دون إبداء استياء أمام استقبالها البارد له دون سبب، و يبحث عن الموت عندما يفكر أنها تعبت، و يضحي حتى بسمعته في صعوده إلى العربة، تضحية لفارس أكثر أهلية للثواب من الموت نفسه. «فمثالية المغازلة الشريفة — يقول لانسون — هي لانسلو، وقصة العربة تشرح القانون فيها، والممزوج بالفعل والأمثلة».

ولننتهي، نقول إن العنصر المذهل الذي يصطحب كل روايات المائدة المستديرة، وعلى وجه الخصوص في قصة «لانسلو» كان في ذوق المجتمع المجامل تماماً. أقزام، جنّيات، حيوانات خيالية، معارك فردية ضد الجبابرة، اختبارات خارقة كانت تذهل التصور وتصنع إطاراً أصبح لازماً لهؤلاء الأبطال. ولا حاجة للاقتناع بهذا — مع ذلك — إلا بمقارنة الفقرة الطويلة في شرح أندريه لوشابيلان العقائدي، حيث يروي كيف وجدت قواعد الحب، ونفس الأصول فيه، وإذا لم يكن النص اللاتيني ترجمة بسيطة لفقرات كريستيان دي تروا، فإن روح هذا (أي كريستيان) منتشرة فيه. وها هو النص:

---

(١) يقصد هنا أن الواحد من هؤلاء كألعوبة تحرّك أطرافها بخيط كما هو الحال في مسرح العرائس.

كيف وجدت قواعد الحب؟

اجتاز فارس من بريتانيا (بفرنسا) راغب برؤية آرثر، الغابة الملكية وحده وتقدّم إلى قلب هذه الغابة، عندها ركضت فتاة ذات جمال كبير وممتطية حصاناً بديعاً فجأة أمامه. فحياها الفارس بكلمة مختصرة، وأجابته الفتاة ببشاشة وقالت: «إن ما تبحث عنه لن تستطيع أن تجده دون الحصول على مساعدتي».

وبهذه الكلمات، طلب الفارس من الفتاة أن تقول له: لأي سبب قد جاء، وبعدها صدق كلامها: «أنت التمست حباً —قالت الفتاة— امرأة من بريتون وقد قالت لك هذه أنها لن تمنحك حبها إذا لم تجلب لها مسبقاً صقراً فائزاً يوجد فوق قصبة في بلاط آرثر.». واستحسن الفارس البريتاني كل هذا بصراحة. وأكملت الفتاة: «لن تستطيع الفوز بالصقر دون أن تثبت أولاً وبالقتال —في بلاط آرثر— أن السيدة التي تحبها أجمل من هؤلاء اللواتي يقمن في بلاط آرثر. ولن تستطيع دخول القصر دون أن يدلّك الحرّاس أولاً على قفاز الصقر. ولكن لن يكون ممكناً أن تنال القفاز نفسه دون إحراز النصر —أولاً— ضد فارسين باسلين جداً».

— قال: أرى أنني لن أستطيع أن أنجح في هذه المجازفة إن لم تمنحيني مساعدتك. ولذا فإنني أضع نفسي تحت كامل تصرفك: وبكلمة، ألزميني بكل العذاب حتى أحوز على مساعدتك في مجازفتي، وسأنالها بكامل رضاك، وبشكل أنني أستطيع —بعودة سلطتك المطلقة علي— أن أدوّن بجرأة اسم صديقتي كإسم أجمل سيدة.

— إذا كانت لديك الشجاعة الكافية بحيث لا تخشى أن تتوغل فيما تقول، ستستطيع أن تنال مني ما تريد.

— إذا أردت أن تمنحيني كل ما أطلب، فأمنياتي ستعرف النجاح.

— إن ما تبحث عنه سيمنح لك في يسر وطمأنينة تامة.

ومنحته إذذاك قبلة الحب، ودلته على الحصان الذي كانت تركبه، واستبدلت به حصانه: «سيقودك هذا الحصان في كل الأماكن التي تتمناها، ولكن عليك أن تتقدم دون أي خوف وأن تقاوم خصومك بشجاعة كبيرة جداً. واجتهد، مع ذلك، في حفظ هذا جيداً في ذاكرتك، على افتراض أن هناك فارسين يحرسان القفّاز: ففي أول مرة تنال فيها النصر، لا تأخذ القفاز الذي لديهما، ولكن خذ ذلك الذي يُعلّق على عمود من ذهب. وفي المرة الثانية لن تستطيع أن تنال شيئاً في معركة القصر ولا أن تنجز ما تريد».

وانتهى هذا الحديث، وارتدى الفارس أسلحته، واستأذن ثم تقدم في الغابة. ووصل في النهاية، بعد أن اجتاز بقعة قاحلة، إلى نهر ذي اتساع وعمق غير معقولين، وعبوره مستحيل لأي إنسان، حيث أن ضفافه صعبة. إلاّ أنه، ومع سيره طويلاً على ضفاف النهر، وصل إلى جسر منظم بهذا الشكل: كان الجسر نفسه من الذهب وطرفاه متصلان بنهرين، ولكن كان وسطُ الجسر في الماء، ومرتجّ غالباً، وكان يبدو مغموراً بالأمواج. وفي طرفه الذي وصل إليه البريتاني محارب على حصان في هيئة وحشية. فحياه البريتاني بكلمة مؤدبة، ولكن الآخر لم يتنازل لردّ التحية:

قـــال:

— عمّ تبحث هنا؟ أيها المحارب من بريتانيا، بعيداً عن وطنك؟؟

— أبحث عن اجتياز للنهر فوق هذا الجسر.

— قل إنك بالأحرى تبحث عن الموت، لأنه لم يستطع أي غريب أبداً أن يتجنّبه هنا. فإن أردت —مع ذلك— أن تذهب ملقياً بسلاحك، فإنني سأتساهل مع شبابك الذي قادك بسلامة سريرتك غير الحذرة في ممالكك الغريبة.

— إذا ألقيت السلاح، فإن ظفرك لن يكون أهلاً للمجد، مقاوماً بالسلاح رجلاً أعزل من السلاح. ولكن إذا استطعت أن تمنع رجلاً مسلحاً من المرور، فإن ظفرك سيكون معتبراً حينئذ كمفخرة. فإذا لم يمنح لي اجتياز الجسر بالرضى، فإنني سأسعى لأفتح الطريق أمامي: بحسامي. فجعل الحارس —وهو ينتظر أن يطلب الشاب الجسر بحد السيف— جعل يُصرّ أسنانه وقد استشاط غضباً. «إنه لسوء حظك أيها الشاب —قال— أنْ قد أرسلتك بريتون، لأنك ستموت بحد السيف في هذا الخلاء. واعلم أنك لن تحمل لسيدتك أبداً أخبار هذه المملكة. آه، أيها البريتاني التعس الذي لم تخش —تلبية لنصيحة سيدة— أن تغنم أماكن موتك!!».

ثم رمى بنفسه ومهاميزه، دافعاً حصانه نحو الفارس البريتاني، ثم فوقه مع سيفه الحاد وضربه ضربة قوية. فصُدم ترس البريتاني ودخل السيف في خاصرته وكسر خيطين من خيوط الزرد(١): وبدأ الدم ينزف بغزارة من الجرح. ولكن الشاب —تحت وطأة الألم— سدّد سنّ رمحه ضد المحارب، وفي قتال وحشي، غرزه في البطن، رامياً إياه عن فرسه ثم ركمه داخل العشب. وحين همّ بقطع رأسه قطعاً تاماً، توسّل إليه حارس الجسر بخضوع ونال العفو الذي طلبه.

ولكن، على الطرف الآخر من الجسر، كان يقف رجل ضخم القامة، وكان واضحاً أن البريتاني اصطحبه معه وأدخله في ممرّ الجسر، وهزّ الأخير هذا بقوة بحيث لم يعد يظهر بعد ذلك غالباً، وقد غمرته الأمواج. ولكن البريتاني —وهو واثق بقيمة حصانه دائماً— لم يتردد بدخوله الجسر بشجاعة. وبعد أن أصيب بكثير من الأذى، وبعد أن دخل الماء كثيراً، بفضل جهود حصانه، وصل إلى الطرف الآخر

(١) زرد كان يلبسه المحاربون في القرون الوسطى.

أخيراً. وهناك، أمسك بهذا الذي زعزع الجسر وخنقه بالماء. ثم عمل قدر استطاعته على تضميد (جراح) جنبه.

وبعد ذلك، امتطى حصانه وسار وسط مروج جميلة جداً. وبعد مسيرة عشر غلوات(١)، وصل إلى مرج آخر جميل جداً ولطيف جداً حيث تعبق الزهور من كل الأنواع، وكان في هذا المرج قصر منظم بشكل مدهش، مستدير وجميل جداً. ولكنه لم يستطع أن يميّز أي باب في أي ركن من أركان القصر. وقد وجد في القصر موائد من الفضة، وعليها أطعمة مجهّزة وأشربة من كل صنف، موضوعة فوق أغطية بيضاء جداً. وكانت في هذا المرج اللطيف بركة من فضة نظيفة جداً، حوت من الماء ما كان كافياً ليسقي ويطعم حصانه. وأدار البريتاني حصانه، ثم عمل جولة حول القصر كله. ولم يكن باستطاعته —وبأية علامة— أن يعرف مدخل البيت ورؤية المنزل المهجور تماماً، وبإلحاح من حاجته إلى الأكل، جلس إلى طاولة، وبدأ يأكل بشراهة كبيرة بقدر ما يسعفه الطعام. ولم يكد يتذوق الطعام حتى فُتح بابٌ فجأة وبخشونة في القصر، وأحدث أثناء فتحه ضوضاء يستطيع المرء أن يقول على إثرها أن الصاعقة وقعت في الجوار. وخرج من هذا الباب —فوراً— رجل ذو قامة ضخمة، حاملاً بين يديه دبوساً من نحاس ذا وزن كبير، وكان يهزّه دون صعوبة كأنه زُبال من قش(٢). وقال للشاب الجالس إلى المائدة:

— من أنت ؟؟ أيها الرجل المعجب بنفسه، لتتجرأ وتأتي في مملكتنا هنا، وتتعاظم بجرأة ولا احترام لحقوق الفرسان على المائدة الملكية ؟؟

— مائدة الملك —قال الفارس البريتاني— ينبغي أن تكون مفتوحة بسعة أمام الناس الأفاضل، والطعام أو الشراب الملكي لا ينبغي أن يكونا مرفوضين لرجب باسل. إن لي الحق في أن أشارك في كل ما يُدّخر للفرسان: لأن كل ما يتعلق بالفروسية هو همي الوحيد، وهذا دوري كفارس هو الذي دفعني إلى هذه الأرجاء. وهذا —من ثم— من سوء الإدراك أن تدّعي —دون أدب— منعي من المائدة الملكية.

— على الطاولة هذه، ليس مهماً من لا يستطيع أن يجلس، ولكن (المهم) سكان القصر فقط. وهؤلاء أيضاً لا يسمحون لأي إنسان أن يذهب إلى أبعد من ذلك، دون أن يكون، قبل كل شيء، قد حارب وغلب حارس القصر. قم، إذن، من الطاولة واستعجل برجوعك إلى بيتك، أو جدّ في الذهاب بعيداً، ولكن بالقتال. ولكن، قل لي بصراحة، ما هو سبب مجيئك؟؟

(١) تقدر الغلوة بثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة (معجم وسيط).

(٢) الزُبال: ما تحمله النملة في فيها.

— أنا ؟؟ أريد قفاز الصقر، وهذا هو موضوع مجيئي. والقفاز قد أُدرك، وسأجدّ في الذهاب بعيداً، وفي بلاط آرثر، لآخذ الصقر بانتصار.

ولكن أين — من ثم — حارس القصر هذا، ذلك الذي عليه أن يمنعني من التوغل إلى الداخل؟؟

— حُمق، أي جنون يتخبط فيه، أيها البريتاني؟؟ تستطيع أن تحيا من عشر مرات ميتاً مرة واحدة، أولى من أن تنال هذا الذي تقول. حسناً، أنا هو حارس القصر الذي سأخيّب رجاءك. إنني في الواقع صاحب قوّة كهذه التي لن يستطيع مئتان من أحسن مقاتلي بريتون أن يتمكنوا —وبصعوبة— من رأسي عندما أكون غاضباً.

— مهما تكن بسالتك التي تتشدق بها، إلا أنني أريد أن أبدأ القتال، لأن يدي حتى الآن قد قتلت ألف جندي. كما أنني لا أحب عدد الفرسان، ومع ذلك فإنني أريد أن أقاتل على قدمي مقابلك وأنت على حصان: وستسقط بلا مراء، من بسالة محارب على قدميه.

— بعيد عن ذهني فكرة قتالي رجلاً على قدميه وأنا أمتطي حصاناً!! ينبغي أن يقاتل رجل على قدميه رجلاً على قدميه.

ثم أخذ السلاح، ورمى نفسه بشجاعة على خصمه، وبضربة سيف، طرق ترسه، فهز حارس القصر، الممتلىء غضباً والمحتقر البريتاني ذاالقامة الصغيرة، دبّوسه النحاسي بغضب شديد، فسحق دبوس البريتاني من قوة الصدمة. وفزع الفارس، وظن الحارس أنه سيدمّره بضربة ثانية، وهزّ سلاحه ليضربه من جديد. ولكنه قبل أن يضرب الضربة الشديدة، سدّد إليه البريتاني، من خلال تخطيط سريع وذكي، ضربة سيف في ذراعه ورمى يد الحارس ودحرجها في العشب، مع دبوسه في نفس الوقت أيضاً.

وفي لحظة ذهابه ليجهز عليه، صرخ الثاني: «حسناً، أأنت فارس بريتون اللطيف الذي تريد الإجهاز على مهزوم بحسامك؟؟ إن توافق أن تترك لي حياتي، فسأساعدك على بلوغ ما تريد بسهولة. ولكنك دوني لن تستطيع أن تنال شيئاً مطلقاً».

— سأهبك الحياة، أيها الحارس، إذا أنجزت وعدك.

— إذا أردت أن تنتظر قليلاً، سأقدم لك قفاز الصقر.

— ها!! ها!! لصّ وكذاب، أرى بوضوح الآن أنك تريد خداعي: إذا أردت أن تحتفظ بحياتك، اجتهد فقط في أن تدلّني على المكان الذي يستقر فيه قفازك».

فقاد الحارس البريتاني إلى داخل القصر، إلى الموضع حيث يرتفع عامود جميل جداً من الذهب، يسند القصر كله، وحيث كان يعلّق القفاز المطلوب. فأخذه بشجاعة وأمسكه بيده اليسرى بقوة، وحينها، دوّت ضوضاء عويل شديد ونواح في كل ركن من أركان القصر دون أن يرى أحداً:

«خسارة !! خسارة !! إن المنتصر علينا رحل مع غنيمته دون أن نغلبه!!» .

ولم يكد يخرج من القصر، حتى امتطى حصانه ووصل –بعدها بقليل، داخل مروج أخرى جميلة جداً ولطيفة جداً، حيث وجد نفسه في قصر آخر من ذهب، مُنشأ بطريقة رائعة، بستمائة زاوية طولاً، ومئتين عرضاً، وكان السقف والجدر الخارجية للقصر من الفضة، ولكن الداخل كان كله من الذهب أو مطعّماً بالحجارة الكريمة. وكان القصر يحتوي على عدة أبهاء، ولكن، كان يجلس في أجمل بهو منها، الملك آرثر فوق عرش من الذهب. وعدد من السيدات من الصعب إحصاء عددهن، يحطْنه، وكذلك عدد من الفرسان الحسان. وكان على عتبة القصر أيضاً قصبة من الذهب جميلة جداً، وعليها الصقر المرغوب، وبقربه كلبان مقيدان وكانا نائمين.

ولكنه قبل أن يستطيع الوصول إلى هذا القصر، كان هناك حائط يرتفع لحمايته، ووُكلت حراسته إلى اثني عشر فارساً باسلاً: وكان هؤلاء لا يدعون أحداً يمر دون أن يريهم قفاز الصقر، أو أن يفتح لنفسه طريقاً بالسيف.

وعندما رآهم البريتاني، أبرز لهم قفاز الصقر بسرعة. ففتح هؤلاء له الطريق قائلين: «هذه طريق ليست ملائمة لك، ولكن يمكن، في المقابل، أن تسبب لنفسك كثيراً من الآلام» . ولكن البريتاني الذي وصل داخل القصر حيًّا الملك آرثر، وسأله الفرسان فوراً عن سبب مجيئه، فقال انه كان آتياً للبحث عن الصقر. فقال له فارس من فرسان البلاط:

— لأي سبب تريد أخذ الصقر ؟؟
— لأنني تشرفت بحب سيدة أجمل من كل السيدات في هذا البلاط، أيها الفارس.
— لذا، ولتستطيع أن تأخذ معك الصقر، عليك أولاً أن تدركه بالقتال، ذلك ما تطلب.
— بكل طيب خاطر.

وأخذ الاثنان دبابيسهما، وفي قاعة القصر، تجهّزا للقتال. وهمزا حصانيهما وهجم كل واحد منهما على الآخر: فكسر دبوساهما، وتحطمت حرابهما، وحاربا حينئذ بالسيف، ومزّق السيف ثيابهما، وبعد صراع طويل، ضُرب فارس القصر على رأسه ضربتين متتابعتين بمهارة شديدة: وتلقى بعينيه ضربة كذلك حتى كاد لا يستطيع أن يرى إلاّ بصعوبة. وهجم البريتاني عليه، وهو منتبه له، بجرأة، وقلبه عن السرج فكان الظافر.

وأخذ الصقر والكلاب حينئذ في نفس الوقت، إذ رأى رِقًّا مكتوباً معلقاً على قصبة بسلسلة ذهبية، وبما أنه سأل ما يكون هذا، أجيب بهذا الجواب:

« هذا رقّ كتبت عليه قواعد الحب التي أعلنها ملك الحب نفسه للعشاق: عليك أن تحملها وأن تطلع العشاق عليها، إذا أردت أن تصطحب الصقر بسلام» .

وبناء عليه، أخذ الرّق، بعد أن طلب الإذن بأدب، ورجع بسرعة دون أدنى صعوبة إلى فتاة الغابة. فوجدها في نفس المكان من الغابة حيث تركها وسرّت هذه بشدة لانتصاره، وردّت عليه قائلة: «أسمح لك أن تذهب عزيزاً جداً، لأن البريتانية الناعمة تناديك. وأطلب منك ألاّ تتأسف علي، لأنك في كل مرة تريد أن تأتي فيها وحيداً إلى هذه الأماكن، فتستطيع أن تجدني هنا دائماً».



الفصل التاسع

الحب العفيف (المجامل) وطوابعه

رأينا حتى الآن مذهب الحب العفيف، معروضاً بشكل نظامي في قواعد محددة على يد لوشابيلان. ثم درسنا بعدها تطبيق هذه القواعد، أولاً، في تسليات السيدات في «مجالس الحب»، ثم في مختلف أشعار التروبادور، وفي النهاية في روايات كريستيان دي‌تروا، وسيكون الآن سهلاً جداً — بعد تحليل هذه الأنواع المختلفة من المستندات — أن نعرّف بشكل أكثر تحديداً هذا الذي يسمى — غالباً — بالحب العفيف.

إن هذا الحب — بالتحديد نفسه — ارستقراطي في هذا المعنى الذي يوافق الصفوة فقط، تلك الصفوة التي تتردد إلى القصر. وكلمة «عفيف Courtois»، آتية في الواقع من كلمة «بلاط Cour» التي تكتب وتلفظ إذذاك بالتاء t، تماماً كما هي الحال في أيامنا بالنسبة للكلمة الانجليزية Court وسواء أكانت الكلمة تشير إلى ما يطبّق في بلاط ملكي أو أميري، أو تشير (إلى ما يطبّق) في «مجلس الحب»، فليس ذلك مهماً. نحن نعلم الآن أنه في بلاط الدوقات والكونتات ذوي السلطة بالضبط قد أحدثت نساؤهم هذا التحويل في الأخلاق وخلقْن فن المجاملة، أي ذلك الذي نطلق عليه في أيامنا اسم «الأدب ومغازلة النساء». وأصل الأمر أن هذا الحب العفيف لم يكن يستطيع أن يطبّق إلاّ على عدد قليل من الأصفياء، حيث يتطلب تعليمُ الأصول المعرفةَ والتدريب على فن صعب، بقواعد صارمة ومعقدة.

والارستقراطية هي الحب بمعنى آخر، وللانشغال بالحب بشكل لائق لابد أن يكون هناك فراغ، وحين يكون المرء مهاجماً بالأعمال والهموم اليومية المفروضة عليه من الحياة المادية، فإنه لا يستطيع أن يصل إلى هذه الحالة النفسية المهمة بالنسبة لمتعة الحب. لكن العكس هو الصحيح، إذ أن الشواغل المادية وضرورة العمل لكسب الحياة يقتلان الحب. ولكن عندما يكون المرء متحرراً من هذه الحاجات البخسة، تكون الروح أكثر حرية، ويستطيع القلب أن يؤدي وظيفته الخاصة التي هي الحب. وهذا ما كان يفعله الشعراء التروبادور الذين تحرروا من هموم الوجود بوضع أنفسهم في خدمة صاحب القصر، أو بالأحرى صاحبة القصر، فكانوا أحسن المغنّين للحب. وهذا أيضاً ما كان يفعله — اقتداء بهم — النبلاء من النساء والفرسان الذين كرسوا أوقات فراغهم كلها للأحاديث والمناقشات الغزلية.

وبما أن الالتزام بالحب يفرض نفسه على كل شاب طبع عليه، فإن الحب هو الشيء العظيم، الوحيد الذي يجعل الحياة أهلاً لأن تعاش، وبهذا يستطيع الجميع أن يرددوا القول بعد برنارد دي ڤينتادور: «لايبدو لي أن رجلاً يستطيع أن يكون له قيمة ما، إن لم يبحث عن الحب والمتعة.... إنه في الحقيقة ميت، ذلك الذي لا يحس داخل قلبه طعم الحب العذب. إذ كيف تسير الحياة دون حب؟؟ وكيف تكون إن لم تكن سأماً (غمّا) للآخرين؟؟ أيستطيع ألاّ يبغضني الله أبداً باعتبار أنني أعيش يوماً أو شهراً، بعد أن أكون قد وقعت في طبقة هؤلاء الضجرين المحرومين من كل رغبة في الحب!!».

ولقد أصبحت السيدات والفرسان، نتيجة هذا الطابع الأرستقراطي، لا يحبون كالشعب. وكان واضحاً أن الأراذل أو الغلاظ لم يكونوا يعرفون من الحب إلاّ الجانب المادي والجسدي، وكما هو الحال عند الحيوانات في معاشرتهم كانوا يمضون حياتهم، ولم تكن عملية الحب بالنسبة لهم سوى إشباع غريزة فطرية وعميقة.

ولذا وجب أن تمتاز عنهم مهما كلّف الأمر. إذ أن «الحب العفيف يخالف الحب الغالي»(١) لهذا السبب، وحتى عندما كان الشعراء التروبادور الأنقياء يحلمون —مع ذلك— بحب يقود إلى نهاية طبيعية، فقد كانوا يأتون على الأقل بعدّتهم، شعرٍ وعلم المعقولات(٢) أيضاً، والمعقد أحياناً، والكافي لتحسينه بشكل مستحب. ولكنه أحياناً لا يعني إلاّ حباً ذهنياً، حباً من العقل وليس حباً من القلب، ذريعةً لشعر رقيق أو سرد علمي فلسفي.

هذا هو السبب في أن الحب لم يولد من خلل مفاجىء في المشاعر، من حب من أول نظرة، أو من عاطفة اختيارية آتية من أعماق الذات، ومحتومة كما هو الحال في الحب القديم لبيدر **Phedre** على سبيل المثال، أو عنيفة على شاكلة حب تريستان وايسلت **Tristan et Yseult**. بل يحب المرء السيدة التي ينبغي له أن يحبها بشكل أكثر تعقلاً، لأن تلك السيدة هي الأكثر جمالاً والأكثر حكمة. وليس هناك حُب قياسي أكثر ولا أكثر صواباً بمفهوم معين.

ولكن الذي هو أدنى من ذلك بحكمنا الحديث، هو أن السيدة التي تُحب هي دائماً أو غالباً امرأة متزوجة. ومن المؤكد أنه ليس هناك خطر في ذلك نظرياً، لأن جسدها ملك لأميرها أو سيدها فقط، وانها تهب لحبيبها فكرها أو قلبها فقط. إلا أنه مع هذا التمييز، وحتى بعد هذا التقسيم، يخشى الكثيرون في أيامنا هذه من أن تخلط المرأة بين الناحيتين أحياناً، وتضلّ مالكها. وعلى كل حال، فإن هذا —وهذا هو الجوهر— يعني حباً غير شرعي، ومع ذلك، فإن ما يستحقه في هذا العصر هو اسم الحب فقط. إن كنه الحب العفيف يستند كله على هذه الحقيقة البديهية وهي أنه لا يستطيع المرء أن يمتلك

(١) نسبة إلى الغال، سبق شرحه.

(٢) علم ما وراء الطبيعة.

حباً حقيقياً طيباً في الزواج. ويمكن أن يكون بين الزوجين —أعني بين ذاتين متحدتين لأسباب مالية، أو إقطاعات أو منافع أحسن من أسباب تتعلق بالقلب أو الطبع— (يمكن أن يكون بينهما) الألفة والعاطفة، أو الحنان على خير وجه. ولا يمكن أن يكون هناك هذا الشعور الأكثر رقة والذي يدفع الواحد من الذاتين اللتين تطلبان بعضهما بعضاً نحو الآخر اختيارياً، ولا اتحاد الأرواح هذا الذي هو ميزة الحب. إن التمتع الهادىء والعام بذات تمتلكها، والطمأنينة التي يقدمها هذا التمتع دون خطر ليساهمان الحب. بل إن الواجب الزوجي نفسه —من حيث أنه قضاء شيء واجب— يصبح عُرفاً تحت تصرف الناس، كغيره من واجبات الحياة اليومية، وهو ميمون إن لم يكن سُخْرِيًّا، مكروهاً ولكنه ضروري، يستطيع أن يُلزم السيد الشرعي به، والأمر على عكس ذلك بين العشاق إذ يصبح كل شيء مستحباً. «إن المحبّين في الواقع —كما كتبت كونتيسة دي‌شامباني— يمنحون كل شيء بالتبادل ومجاناً. أما الأزواج فيقتصرون على واجب إخضاع أهوائهم، ولا يمتنعون عن شيء أبداً».

إن الخوف المستمر الذي يعيش فيه المحبون هو —من جهة أخرى— أحسن منشّط للحب الحقيقي: ليس الخوف من الزوج، الذي لا يبدو أبداً أنه نال مكانة في هذه الأنواع من القضايا، والذي كان أحياناً يشاهد متلهياً بهذه التسلية أيضاً، بل الخوف من الغيرة، أي من الأعداء المستعدين دائماً لايذائك لدى السيدة، مع الأمل الخفي —ربما— بفقد مكان مشتهى وخصوصاً الخوف من فقد سيدته.

وبما أن رفعة الشأن الاجتماعية للمرأة المحبوبة فوق العاشق، فإن هذا يرتجف دون توقف حين يتصور أنه: هل يستطيع تكديرها أم أنه لن يكون أهلاً لها ولحبها. وعندما يضاف القلق أو آلام الغيرة، سيتأكد المرء من أنه سيتمتع بحب من صنف آخر مثل الشعور الهادىء المطمئن للحب الزوجي.

فإن كان هناك زانٍ أقلّ أدباً، فلن يكون مشتبهاً بالنسبة لنا. وقد كان جاستون باري يستطيع بسهولة أن يتهكم على هذه المجالس للنساء المتزوجات اللواتي كن يجتمعن لإخضاع الزنا للقوانين، لكنه من العدل أن نضيف أن أخلاق القرن الثاني عشر لم تكن كأخلاقنا. فكان الزنا في هذا العصر شيئاً مادياً فقط، وبهذه الحجة كان يعاقب بقسوة حسب الأعراف، وكانت العقوبة العادية هي السجن مدى الحياة داخل دير. ولكن المرأة التي كانت تحمي جسدها تكون قد عملت كل ما كان يطلب منها. إن مظاهر الإكرام التي كانت تستطيع أن تتقبلها لا تحمل الشبهة —بوجه ما— إلى الزوج الذي كان هو نفسه معجباً بها ولم يفكر بمنعها. فكان للزوج الذات والإخلاص المادي، وللحبيب —عامة— الروح والحياة الروحية، بل الأفضل من ذلك أن المرأة الفاضلة لا تستطيع ذلك فقط، بل عليها أن يكون لديها زوج وحبيب تقريباً. والخطأ الوحيد والفظيع هو الزنا الأخلاقي القائم على اتخاذ حبيبين معاً، وقد رأينا قسوة «مجالس الحب» ضد هذه الغلطة. وواضح أنه يصعب علينا أن نستوعب اليوم أن فضيلة امرأة تقوم على حقها في ألاّ تحب زوجها، وعلى واجب أن تحب رجلاً آخر. وليست هنا النقطة الأقل غرابة لهذه الأخلاق الغريبة، خاصة في عصر كان فيه الدين أقوى بكثير منه في أيامنا هذه.

وحتى في حالة كون الزوج على علم بهذا، فقد كان على الحب العفيف أن يحتفظ بطابعه «السّري» دائماً. إذ كان السر والغموض قاعدة أساسية، ودونها، لا يوجد حب حقيقي. كذلك فإن الشعراء التروبادور أيضاً يعدون المرأة التي يأملون منها الحب، بكل الحذر المطلق. وتلح قواعد أندريه لوشابيلان على تكرار الأخذ بهذا السر، الذي تقود مجاوزته إلى الحرمان من الحب:

« كل المحبين متفقون على حفظ سرّحبهم. «فإذا سلّموا منازعاتهم إلى قضاء النساء، فإن أسماءهم لا ينبغي أن تسجّل في المحاكمات، ولكن تُعلن مرة فقط إن انتهت الدعوى.

« إذا استخدموا رسائل للإتصال فيما بينهم (عليهم) أن يتحاشوا وضع اسمهم فيها. ولا ينبغي لهم في هذه الرسائل أن يضعوا خاتمهم، مالم يكن لهم خاتم يكون معروفاً لهم فقط ولأمين سرهم».

و يلعب أمين السرّ (الوسيط) في الواقع دوراً كبيراً، فهو أمين وحيد لأسرار صديقه، من حيث أن اسمه من الأعمال الكتابية السرية، إنه الوسيط الطبيعي بين الفارس وسيدته. ولكنه —على وجه الخصوص— المدافع والممثل الرسمي للفارس إذا غاب هذا مثلاً بعض الوقت. و يستطيع بهذه الصفة أن يجري مرافعة باسم صديقه في «مجالس الحب» كما رأينا في الحكم الثالث عشر، والذي قضت به كونتيسة دي شامباني.

ولكن هناك طابع آخر للحب العفيف، كما رأينا، في تقليده نظام مراتب الإقطاع، وهو استعلاء السيدة التي كانت تعتبر صاحبة الإقطاعة، على حبيبها الذي كان يعتبر كرجل إقطاع تابع لها. ومن هذا الموقف الأدنى للحبيب دائماً، نتج خضوعه الكامل، وإخلاصه المطلق، وحياؤه وخشيته الدائمة من فقد موضوع آماله. ومن المؤكد أنه يعتقد دائماً أن حبه سينتصر في النهاية، و يعطيه هذا الأملُ الصبر والثبات الضروريين: «فالحب يغلب كل شيء — كما كتب برنارد دي ڤينتادور—، لأنه غلبني، و يستطيع أن يغلبها هي أيضاً، و بلمحة»، ولديه الأمل بأن الثواب سيكون مؤكداً بمقدار ما سيكون لطيفاً، لذا فإنه كان يتعذب أكثر من الأحزان و ينتظر أطول وقت ممكن. و بالتالي، فكلما تكون السيدة ظالمة متكبرة أو ذات نزوات، كلما أحرز المكافأة الملائمة لكل الآلام ولكل الرفض الجاف أخيراً:

و يتذكر المرء سلسلة هذه الأمور التي تحملها الفارس لانسلو في رواية كريستيان دي تروا. وعليه، فإن على كل فارس خادم أن يكون جاهزاً لقبول الاختبارات والاهانات من كل نوع كان يسر سيدته أن تفرضه عليه، لأنها كانت تفعل ذلك لصالحه.

فإن وجد ثواب نهائي أو لم يكن، فهو —في الواقع— شيء مؤكد على الأقل: والهدف الثابت من ذلك لامرأة حقيقية هو جعل فارسها يرغب في عمل كل شيء يجعله أفضل: فالنزوات والجفاء العابر ليسا سوى وسائل مستخدمة لتنمية خصال الصبر، والشجاعة، وتحمّل المشاق عنده. وتمنح نية

الإصلاح الأخلاقي عنده —والفضل في ذلك يرجع لحب السيدة— المحب هذه الحالة الروحية التي تسمى «متعة الحب»، والتي دونها لا يمكن أن يكون هناك خير. ويمكن —بنفس المعنى— أن يكون عدم الرضى مصدر متعة أكثر قوة وأكثر رقة، إن كل ما يعانيه من السيدة التي يحبها، يسبب له متعة ذات قيمة عظيمة، وهذا ما يميز المتع المبتذلة من الكريهة.

قال ميراڤال: «إنه من الحب —كما يقال— ينشأ كل ماله قيمة»، ولقد كان الشعراء التروبادور —قبل «لوجاليه le Jallez» للكاتب جيل رومان Jules Romains- يظنون أن الحب المفهوم بهذا الشكل هو وحده قادر على «رفع الأعراق الوضيعة» ويوصل تابعيه إلى هذا التشريف الذي هو مصدر كل الأشياء الجميلة: إن الحب يجعل الجبان شجاعاً، والبخيل مسرفاً، والحزين فرحاً... الخ، ويشعر المرء أن مثل هذه النتيجة تستحق الجهد للجهاد.

إنه يستحق الجهد لا سيما وأن المرء يسعى ليعرف تماماً، ويمارس بعد ذلك قواعد هذا العلم المعقد. لأن هناك قواعد للاتباع في «فن الحب» كما هو الحال في الفروسية، ومن الضروري معرفتها جيداً لئلا تفوته، ويخاطر بفقده الحب، أصل كل الفضائل، ويدرك المرء مذذاك ضرورة هذه الأنواع من التعاليم المسيحية للعشق التي حفظ لنا لوشابيلان منها ثلاثة نماذج. ولقد كانت الشرط الحتمي للوصول إلى متعة الحب هذه، وهي هدف هام لكل الترقّي في فروسية الحب. إذ أن «المتعة» التي يتحدث عنها الشعراء التروبادور هي بالطبع «متعة الحب، أي شعور جديد، غير معروف للقدماء وللشعوب المسيحية في العصور الوسطى، والتي تخلق —وراء ذلك الحاصل الجنسي— متعة الحب، هذا التمجيد العاطفي هو الذي يعظمه —دون أن يكون غريباً عن الرغبة— بتحويله روحياً، ويرفع نفعه فوق سفلة الناس».

وهكذا يعبّر بلبيرون Belperon عن الموضوع الذي تسميه العظيمة «مكتشفة الشعراء التروبادور: الحب الإنساني، المضاد في تجربته لإشباع الرغبة المادية، والذي يقدر أن يصبح أداة للإصلاح الروحي لهذا الذي يحب».

ها هي الطوابع الرئيسية للحب العفيف المعتبر في هذا العصر بتطوره الكامل. ويستطيع المرء —دون تجاوز الأحداث— أن يعتمد على ما نشأ في «مجالس الحب» —كما هو الحال بالنسبة لفن أدب المؤانسة— وبالأخص في مجلس كونتيسة دي شامباني، هناك، في الواقع، البوتقة حيث صنع الامتزاج —والفضل يعود لكريستيان دي تروا— لتيّار مزدوج: أحدهما آتٍ من الوسط مع تأثير الشعراء التروبادور وإليونور داكيتانيا، والآخر آتٍ من بريتون، مع تأثير القصص السلتية Celtiques (١) للمائدة المستديرة.

---

(١) نسبة إلى سكان غرب أوروبا القدماء.



فهرست

إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب	المؤلف
* الجبل الذي صار سهلا	الأستاذ أحمد قنديل
* من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
* عهد الصبا في البادية	الأستاذ عزيز ضياء
* التنمية قضية	الدكتور محمود محمد صفر
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	الدكتور سليمان محمد الغنام
* الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
* الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
* غداً أنسى (قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
* موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
* ازمة الطاقة إلى أين ؟	الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
* نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
* إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
* رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
* شرح قصيدة البردة (دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
* عواطف انسانية (ديوان شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
* تاريخ عمارة المسجد الحرام	الشيخ حسين باسلامة
* وقفة	الدكتور عبد الله حسين باسلامة
* خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
* علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
* الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
* طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
* إلتنمية وجهاً لوجه	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* الحضارة تحدٍّ	الدكتور محمود محمد سفر
* عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر الزمخشري
* لحظة ضعف	الأستاذ فؤاد صادق مفتي

* الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
* ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
* بائع التبغ	الأستاذ حمزة بوقري
* أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
* النجم الفريد	الأستاذ عزيز ضياء
* مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
* قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي
* نبض ..	الأستاذ عبد الله جفري
* نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار تربوية	الدكتور ابراهيم عباس نتو
* عن هذا وذاك	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* نقر العصافير (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
* السعد وعد (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
* قصص من سومرست موم	الأستاذ عزيز ضياء
* الأصداف (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
* فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي

تحت الطبع :

* رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* قصص من طاغور	الأستاذ عزيز ضياء
* السنيورا (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
* التاريخ العربي وبدايته	الأستاذ أمين مدني
* تأملات في دروب الحق والباطل	الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
* خدعتني بحبها (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
* أيامي ..	الأستاذ أحمد السباعي
* ماما زبيدة (مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز
* مدارسنا والتربية	الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
* دوائر في دفتر الزمن (مجموعة قصصية)	الأستاذ سباعي عثمان
* جسور إلى القمة	الأستاذ عزيز ضياء
* هكذا علمني وردزورث	الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

* عام ١٩٨٤ لجورج أورويل — الأستاذ عزيز ضياء
* مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
* وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* لن تلحد — الاستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* خواطر جريئة — الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
* تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها — الشيخ حسين باسلامة
* الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين باسلامة
* قضايا .. ومشكلات لغوية — الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
* كلمة ونصف — الأستاذ محمد حسين زيدان
* ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز — الأستاذ محمد علي مغربي

الكتاب الجامعي

صدر منها :

* الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبد القادر علاقي
* الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الانجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان زهران، الدكتور محمد عيد
* النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبد السلام
* الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبد المنعم رسلان
* النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
* علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
* مبادىء القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد ابراهيم أبو العينين
* الاتجاهات العددية والنوعية للروايات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
* الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
* مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
* شعراء التروبادور — الدكتورة مريم البغدادي

تحت الطبع :



* أمراض الأذن والأنف والحنجرة	الدكتور أمين عبد الله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
* النظرية النسبية	الدكتور عبد الرحمن فكري الدكتور محمد عبد الهادي كامل
* الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
* هندسة النظام الكوني في القرآن	الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
* الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية	الأستاذ نبيل عبيد الحي رضوان



صدر منها :

* حارس الفندق القديم	الأستاذ صالح إبراهيم
* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
* التخلف الإملائي	الأستاذة نوال قاضي
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة العربية)	
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)	
* تسـالي	الدكتور حسن يوسف نصيف
* مجلة الأحكام الشرعية (دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان الدكتور محمد ابراهيم أحمد علي
* النفس الإنسانية في القرآن الكريم	الأستاذ ابراهيم سرسيق
* خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
* واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد

صحة العائلة في بلد عربي متطور — الدكتور زهير أحمد السباعي

تحت الطبع :

* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الأستاذ محمد أمين ساعاتي
* القرآن .. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكاندي
* ألــوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطر وموسيقى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — الدكتور اسماعيل الهلباوي
* جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
* مساء يوم في آذار — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
* النبش في جرح قديم — الأستاذ السيد عبد الرؤوف
* الموت والابتسامة — الأستاذ عبد الله باقازي
* مواسم الشمس المقبلة — الأستاذ محمد علي قدس

رسائل جامعية

تحت الطبع :

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
* نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
* افتراءات فليب حتى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب اسحاق

صدر منها:

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر ..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

صدر منها:

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع:

- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- حكايات للأطفال — الأستاذ عز يز ضياء
- قصص للأطفال — الأستاذة فر يدة فارسي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

English Books Published By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan

- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.

- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai

- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.